الفاشوش

في حكم اللي ميستحوش



الرحلة الثانية

محمد صبحي

من عبدون. إلي مولانا

شعارات علي عتبات الفاشوش

الفاشوش - في حكم اللي ميستحوش
تأليف: محمد صبحي محمد – المحامي
الطبعة الاولى – ٢٠٢٦

هذا المصنف الادبي، بما يتضمنه من نص وشخصيات واحداث وحبكة وتعبيرات وصياغات وعناصر ابداعية، محمي بموجب احكام قانون حماية حقوق الملكية الفكرية المصري رقم ٨٢ لسنة ٢٠٠٢ وتعديلاته، وبموجب القوانين والاتفاقيات ذات الصلة.

لا يجوز، دون الحصول على اذن كتابي مسبق من المؤلف او من صاحب الحق، اعادة طبع، او نسخ، او نشر، او اعادة نشر، او توزيع، او اتاحة هذا المصنف، كليًا او جزئيًا، باي وسيلة كانت، ورقية، او الكترونية، او صوتية، او رقمية، كما لا يجوز ترجمته او تحويله او اعداد مصنف مشتق منه او استغلاله باي صورة تستلزم ترخيصًا بموجب القانون.

ولا يخل ما سبق باي من الاستخدامات والاستثناءات التي اجازها القانون، بما في ذلك الاقتباس، او التحليل، او التلخيص، او النقد، او المناقشة، او الاعلام، وذلك في الحدود والشروط المقررة قانونًا، مع مراعاة نسبة المصنف الى مؤلفه وذكر المصدر متى كان ذلك واجبًا قانونًا.

واي استخدام للمصنف خارج الحدود التي يجيزها القانون يتطلب الحصول على اذن كتابي مسبق من صاحب الحق.

جميع الحقوق محفوظة
للمؤلف
محمد صبحي
© ٢٠٢٦

المحتويات

اهداء ٥

رسالة شكر ٦

مقدمة ٧

الفصل الأول الباب اللي ما اتقفلش ٩

الفصل الثاني الملكة بح ٤٢

الفصل الثالث الغزال مش سعيد ٧٩

الفصل الرابع من غير شهود ١٥٣

الفصل الخامس الباب المفتوح ٢١٤

الفصل السادس الكوز لسه مليان ٢٦٧

الفصل السابع مسمار جحا ٣٣٤

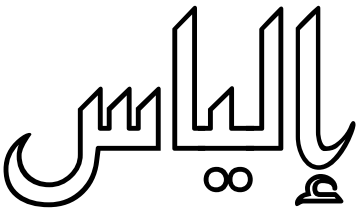
الفصل الثامن مجلس رئاسي ٣٩١

الفصل التاسع بابا زيدان ٤٤١

الفصل العاشر نوح ٤٨٣

اهداء

إليك وحدك





رسالة شكر

إلى من أتقنوا المعارضة سرّاً وركوب الثورة جهراً..

شكراً لأنكم أفرغتم التجربة من معناها، وحالفتم الجميع على الإقصاء حتى أعدتم المذبح بأيديكم،

شكراً لأنكم علمتمونا كيف تُخاض المعارك بالوكالة، وكيف تُبرم الصفقات في الغرف المغلقة مع من باركتموه دهراً ونازلتموه صورياً

شكراً أنكم ظننتم أن "دار الأمل" قد أصبحت غنيمة خالصة، فاستبدلتم منطق الشراكة بمنطق الاستحواذ، وضيعتم الفرصة التي لم تكن تملك من الأمر شيئاً سوى أن تبحث عن وطن عادل، وأهديتم المبرر على طبق من ذهب لعودة من رحلوا بلا رجعة.

مقدمة

حين أُسدل الستار على الفصل الأخير من رواية "الفاشوش في حكم اللي ميعرفوش"، ظن البعض -أو ربما تمنوا- أن الحكاية قد بلغت غايتها، وأن العبث قد استنفد فصوله ورحل.

لكن التاريخ، في بلادنا المنسية ودفاترنا المفتوحة، لا يعرف النقاط الأخيرة؛ فهو لا يُغيّر سوى الوجوه، ليعيد تدوير ذات الأوهام، ونفس الخيبات، بمهارة منضبطة.

وها نحن نلتقي مجدداً في المحطة الثانية من هذه الثلاثية الساخرة وربما الجارحة؛ فبين أيديكم الآن رواية **"الفاشوش في حكم اللي ميستحوش"**، حيث لا يعود الصراع بين قديم يصارع للبقاء

وجديد يطلب الحياة، بل بين منظومة أدمنت إعادة إنتاج نفسها بقوالب مستوردة وشعارات أكثر لمعاناً وأشد فراغاً، كأنما كتب على هذا الشعب أن يراوح في مكانه بين مطحنة الوهم وماكينة الاستبداد الناعم.

هنا، تتكشف وجوه جديدة، وتتبدل الأدوار على مسرح لا يغلق أبوابه، لنكتشف أن الأسماء تتغير واللافتات تتعدد، بينما يبقى الجوهر على حاله. ومع طي هذه الصفحات، نأمل أن تشاركونا هذا المخاض، وأن تتحمسوا معنا لقراءة الرواية الثالثة والأخيرة في رحلة الشقاء والوعي: **"الفاشوش وحكم اللي مابيأسوش"**، علّنا نصل معاً إلى مرافئ الحقيقة، أو نكتشف على الأقل كيف ننجو بما تبقى من أرواحنا.

الفصل الأول
الباب اللي ما اتقفلش

لم يصرّ الباب.

كان الباب الحديدي لدار الأمل قد اعتاد منذ عقود أن يئنّ كلما فُتح، أنيناً صدئاً يعرفه الأيتام كما يعرفون أصوات أمهاتهم، لو كانت لهم أمهات. أما الآن فقد انفتح على مصراعيه بلا أنين، ومرّت الريح من بين قضبانه الحديدية على أطراف أصابعها، كأنها تخشى أن توقظ شيئاً لم يبقَ فيه ما يُوقَظ.

كان هذا أول ما لاحظه الرجل القادم من وسط الصحراء: دار بلا صرير. دار تنتظر مجهولاً.

توقف عند عتبة الدار، أمام الطفلة زهرة، الشاهدة الحقيقية على ما حدث في حكم اللي ميعرفوش، ووضع يده على صدره، وقال بصوته الدافئ المخملي:

بابا إبراهيم:

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم دخل بقدمه اليمنى. كان يعرف السنّة في كل شيء، حتى في دخول أرض بلا أصحاب.

نظرت الصغيرة المتعلقة بيده إلى قدمه، ثم إلى قدميها الحافيتين، وقالت بجدية عالمة آثار:

زهرة:

ـــ بابا، هو إنت ليه وقفت وعدّلت نفسك عشان تدخل برجلك دي مش التانية؟

بابا إبراهيم (يضحك):

ـــ عشان دي اليمين والسنّة ندخل برجلينا اليمين يا زهرة.

زهرة:

ـــ يعني إيه سنّة؟

بابا إبراهيم (ضاحكاً):

ـــ أصلاً!!! لا، ده إحنا كده ها نبدأ مع بعض من بعيد أوي.

زهرة:

ـــ أنا طول عمري بدخل بأي رجل ومحدش هنا كان يعرف موضوع السنّة ده.

بابا إبراهيم:

ـــ طب وإيه اللي حصل للناس كانوا هنا؟

نظرت الصغيرة إلى الدار الخاوية حولها، ولم تجب.

عاد يسألها بنبرة أخف، كمن يفتح لها باباً صغيراً للكلام:

بابا إبراهيم:

ـــ طب مش انتي كنتي عايزة تحكي اللي حصل؟ تعالي نتمشى ونتفرج على الدار، وانتي تحكيلي إيه اللي حصل هنا.

زهرة:

ـــ من الأول؟

بابا إبراهيم:

ـــ من الأول يا ستي.

كانت الجنينة الترابية تمتد أمامهما بلا أحد. وفي منتصفها أرجوحة خشبية طويلة تتأرجح على دعامتها مع الريح بصرير خافت. وقفت زهرة بالقرب منها، وأخذت تعدّ على أصابعها كمن يحكي حدوتة حفظتها:

زهرة:

ـــ كان فيه بابا كبير اسمه البابا. راح يجيب أكل، ومرجعش.

بابا إبراهيم:

ـــ ومين اللي فضل مكانه؟

زهرة:

ـــ عبدون. طلع فوق المورجيحة دي، ووقف، وقال: أنا البابا.

بابا إبراهيم:

ـــ وإنتوا عملتوا إيه وقتها؟

زهرة (بصدق):

ـــ إحنا هتفنا لعبدون.

بابا إبراهيم:

ـــ هتفتوا ليه؟

زهرة:

ـــ مش عارفة، بس الهتاف سهل وممتع أوي. تحب أهتفلك؟

نظر إبراهيم إلى الأرجوحة لحظة، كمن يقدّر ثمن قطعة أثاث.

بابا إبراهيم:

ـــ لأ يا حبيبتي، مش دلوقتي. بس قوليلي: محدش من إخواتك قال أشمعني عبدون؟ ولا حد قال لأ؟

زهرة:

ـــ بكر قال لأ. فحطوه تحت.

وأشارت بإصبعها نحو باب حديدي قصير في أسفل جدار قريب، عليه قفل ثقيل.

زهرة:

— ومنى كمان على فكرة. وناس تانيين كلهم تحت.

حدّق إبراهيم في القفل لحظة، ثم مرّ دون أن يسأل. كان يحب أن يعرف الأشياء حين يحين وقتها.

وعلى الأرض تناثرت جذوع قُطعت حديثاً، لا يزال لبّها الرطب يلمع، وبينها وقفت نخلات بلاستيكية في صف منتظم، خضراء بلا ظل، لامعة بلا حياة، لا تتحرك حتى حين تهبّ الريح.

زهرة:

ـــ وبعدين جم ناس غُرب، ومعاهم أكل كتير، وعبدون بقي يسلّم عليهم ويحضنهم، وقال إنهم صحابه، وكلمة تانية كده مش عارفة معناها، بس هما قالوها كتير: كلمة أشقاء.

وبعدها عبدون بقي بيضحك زيهم. وقطعوا الشجر، وجابوا الشجر البلاستيك ده.

هو صحيح يا بابا يعني إيه أشقاء دي؟

تجاهل إبراهيم سؤال زهرة، ومرّر كفه على أقرب نخلة وضحك:

ـــ ما شاء الله... شجر!

زهرة:

ـــ بس ده بلاستيك.

بابا إبراهيم:

ـــ الحمد لله. شجر ما بيعطش ولا بيمرض ولا بيتحاسب.

نظرت إليه الصغيرة ولم تفهم، لكنها خزّنت الجملة في ذاكرتها مع الجمل التي لا تُفهم الآن وتُفهم حين يفوت الأوان.

أشارت زهرة إلى جذع عريض مقطوع قرب السور:

زهرة:

ـــ وهنا بقي كانت شجرة التوت. كنا بنحدف عليها أي حاجة عشان ينزل توت، ونتسابق بعض مين ياكله.

مسح إبراهيم على الجذع المقطوع كما يمسح على رأس ميت:

ـــ الله يرحمها.

زهرة:

ـــ قالوا هيعملوها فحم.

بابا إبراهيم:

ـــ كل حاجة بتتحول يا زهرة. المهم ليه ها نحولها، ومين اللي ياخد الفحم ده.

وعند طرف الجنينة، حيث آثار عجلات سيارة البابا العتيقة محفورة على الأرض، أُقيمت أعمدة من الرخام الأبيض نصف مكتملة، بلا سقف، تلمع تحت آخر ضوء العصر كهيكل عظمي لقصر لم يولد بعد.

أكوام من الرخام المستورد، وصناديق مذهبة الزخرف لم تُفتح، وعمال رحلوا من غير أن يقفلوا حقائبهم.

وقف إبراهيم أمامها طويلاً، وللمرة الأولى منذ دخل الدار اختفت ابتسامته. لم يكن حزناً؛ كان تأمل رجل يعدّ شيئاً في رأسه.

ثم همس، لنفسه:

ـــ الحمد لله... حد جهّز ورمى أساس البيت.

زهرة:

ـــ إنت قلت حاجة؟

بابا إبراهيم:

ـــ قلت سبحان الله يا حبيبتي.

أشارت زهرة إلى الأرض الفارغة بين الأعمدة:

زهرة:

ـــ هنا كانت العربية القديمة بتاعة البابا. سعيد كان بيقعد فيها دايماً ويفضل ويضحك ويضحّكنا.

بابا إبراهيم:

ـــ وسعيد فين مات برضه؟

زهرة:

ـــ لأ سعيد مشي.

لم تزد زهرة، ولم يسأل.

زهرة:

ـــ وبعدين الأكل خلص، ونص العيال تعبوا. وعبدون ركب العربية الكبيرة الجديدة ومشي. مخدش حد معاه خالص. والعيال لقوا الباب مفتوح فخرجوا.

سكت إبراهيم لحظة.

بابا إبراهيم:

ـــ ومحدش قفل الباب وراه.

زهرة:

ـــ محدش.

شدّته من يده بإلحاح من تذكّرت فجأة أمراً أهم:

زهرة:

ـــ تعالى. لازم تشوف تونة.

بابا إبراهيم:

ـــ تونة مين؟

زهرة:

ـــ إزاي ما تعرفش فاتن؟ دي أكبر وأحن حد هنا.

بابا إبراهيم:

ـــ يا سلام! طب عرّفيني إنتي يا قمر.

وفي الجنينة الخلفية، حيث لا تصل أيدي الصغار عادة، ترقد القبور.

لم تكن مقابر بالمعنى المفهوم؛ كانت تلالاً صغيرة من التراب، فوق كل تل حجر أو عود مكسور أو لعبة قماشية بالية.

صفوف متقاربة غير منتظمة، كأن الحفّار كان على عجل، لكنه لا يريد أن يترك أحداً بلا علامة.

سأل إبراهيم بصوت واطي:

ـــ كام واحد مدفون هنا؟

عدّت زهرة على أصابعها الصغيرة بجدية:

زهرة:

ـــ واحد، اتنين، تلاتة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، تمانية، تسعة، عشرة.

ثم توقفت.

بابا إبراهيم:

ـــ وبعد عشرة؟

زهرة:

ـــ بعد عشرة بتلخبط. مش بعرف أعدّ غير لحد هنا أصلاً.

وفي آخر الصف، عند قبر طري لم يجفّ ترابه، كان هناك ما بدا لإبراهيم أول الأمر كومة ثياب.

ثم هزّت الريح طرف الكومة، فرأى الشعر، ورأى اليد الممدودة فوق التراب.

زهرة (تصرخ):

ـــ فاتن!

وانطلقت تجري.

لم يجرِ إبراهيم. مشى بخطوات واسعة ثابتة، وحين وصل ركع عند رأسها.



بابا إبراهيم:

ـــ ربنا مخلقش حاجة أجمل من كده!

وقال "بسم الله" بنبرة من يرقي. وضع ظهر كفه أمام أنفها، ثم على جبينها، وانتظر.

بابا إبراهيم (دون أن يلتفت):

ـــ هي عيانة؟

زهرة:

ـــ لأ. هي بس نايمة. هي بقالها كتير مش بتنام.

أمسك بابا إبراهيم يد فاتن وقلبهما برفق: أظافر منكسرة، جلد مشقوق، وتراب ممزوج بدم قديم ودم طازج. يدان لم تُخلقا لحفر القبور، وقد حفرتا كثيراً. حدّق فيهما كأنه يقرأ شيئاً غير الجراح.

ومن خلف جدار قريب جاء سعال، ثم أنين ضعيف، ثم سكوت.

تجمّد إبراهيم. رفع كمّه الواسع بحركة مدروسة حتى غطّى أنفه وفمه.

بابا إبراهيم:

ـــ إيه الصوت ده؟ هو في حد تاني هنا؟

زهرة:

ـــ العيانين مش انا قولتلك عليهم. عنبرهم هناك أهو، بس بابه مقفول. وعناني قال محدش يدخل عندهم.

بابا إبراهيم:

ـــ ومين عناني؟

زهرة:

ـــ مات.

بابا إبراهيم:

ـــ الله يرحمه.

وتراجع خطوة كاملة عن الجدار:

بابا إبراهيم:

— لا حول ولا قوة إلا بالله. أمرهم لله يا بنتي، وربنا يشفيهم.

لم يتحرك نحو الباب المقفول، ولم يسأل من يعتني بهم.

كانت شجاعته، على صدقها، شجاعة تعرف أين تقف.

ثم انحنى وحمل فاتن بين ذراعيه كما يُحمل شيء ثمين يخشى أن ينكسر.

كان وزن فاتن خفيفاً على نحو أخافه: كأن الدار كلها كانت محمّلة على كتفيها، حتى لم يبقَ فيها شيء غير الثقل.

في الممر الداخلي الطويل، عُلّقت على الحائط ساعة نحاسية كبيرة.

رفع عينيه إليها وهو يحمل الفتاة، وقرأ العقارب: الرابعة وربع.

بابا إبراهيم:

ـــ الساعة دي واقفة.

زهرة (تجري خلفه):

ـــدايماً

بابا إبراهيم:

ـــ من إمتي؟

زهرة:

ـــ من قبل ما أتولد.

بابا إبراهيم:

ـــ وإيه اللي كان بيضبط الوقت هنا؟

فكرت الصغيرة وأجابت بصدق مطلق:

ـــ البابا.

سكت إبراهيم. ثم قال لنفسه بصوت لا يكاد يُسمع:

ـــ الوقت لله... وبعد ربنا، لمن يحسن الإمساك به.

وما إن دفع باب غرفة البابا بكتفه حتى استقبلته رائحة الرطوبة والخشب القديم؛ رائحة غرفة نسي الناس أنها تُسكن.

وفي منتصفها كرسي مقلوب على ظهره، قدماه إلى السقف كحشرة ميتة، وجلده المتشقق مفتوح كجرح.

وبجواره على الأرض شاب قوي البنية ملقى على جنبه، وجهه شاحب معرّق، وصدره يعلو ويهبط ببطء... زيدان.

وقف إبراهيم فوقه لحظة. ثم، بطريقة من يتأكد أن شيئاً ما لم يعد خطراً، دفعه بطرف حذائه دفعة خفيفة.

لم يتحرك الجسد لكن بدا انه حي.

بابا إبراهيم:

ـــ عايش ها ساعده متقلقيش بس مش دلوقتي خلينا في فاتن الأول.

وتركه حيث هو، كأنه تفصيله من تفاصيل الأثاث.

أعاد الكرسي إلى وضعه، ونفض عنه التراب بكمّه برفق، لا كما يُرفع كرسي، بل كما يُرفع شيء ذو شأن. ولم يجلس عليه.

وضع فاتن على الأريكة القديمة في الركن.

جاءت زهرة من الزير بكوب صفيح فيه بقية ماء، وبلّ إبراهيم منديله الكبير وغسل وجه فاتن، ثم يديها، إصبعاً إصبعاً، وهو يتمتم بآيات لم تفهم منها زهرة غير دفئها. ثم لفّ الجراح بالمنديل وعقده بحرص.

زهرة:

ـــ هو إنت دكتور؟

بابا إبراهيم:

ـــ أنا واحد بيحب يخدم. وأنا عندكم يا زهرة، ضيف مؤقت، على ما أطمّن عليكم.

ارتجفت أجفان فاتن، ثم انفتحت عيناها.

لم تنظر إليه. نظرت إلى السقف المتشقق، وقالت بصوت مبحوح كأنه يخرج من التراب:

فاتن:

ـــ أحلام... السخونية نزلت؟

لم يجبها أحد.

ثم عادت الذاكرة دفعة واحدة، ورأوا ذلك على وجهها. لم تبكِ؛ كانت قد فرغت من البكاء قبل أيام. لكن شيئاً في ملامحها انكمش.

حاولت أن تنهض:

فاتن:

— لازم أقوم. العيال اللي جوه... مفيش حد معاهم.

بابا إبراهيم (بهدوء أبوي، دون أن يقترب):

— يا بنتي، ارتاحي. مفيش حاجة هتروح.

فاتن (تنظر إليه لأول مرة):

— إنت مين؟

زهرة:

— ده بابا إبراهيم.

فاتن (بابتسامة جافة لا تصل إلى عينيها):

— إحنا ماعندناش بابا.

بابا إبراهيم:

ـــ كل بيت له أب يا بنتي، حتى لو غاب ها يرجع.

فاتن:

ـــ وبيرجع إمتى؟ الولاد بقالهم كتير مستنين.

بابا إبراهيم:

ـــ أنا جيت أقوم بالدور ده مؤقتاً يا ستي.

فاتن:

ـــ وجيت ليه؟

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا بعتني.

أغمضت فاتن عينيها، وقالت جملة واحدة قطعت الغرفة كالنصل:

فاتن:

ـــ ربنا اتأخر أوي.

لم يردّ إبراهيم.

وقال بعد قليل، بنبرة من يغطي طفلاً:

بابا إبراهيم:

ـــ استغفري ربنا، ده حرام. ربنا ليه حكمة أكيد، وكل حاجة هاتتظبط بإذن الله. نامي دلوقتي ريّحي جسمك ومتقلقيش.

ارتجفت فاتن، ولم يعرف أحد السبب؛ كأنها سمعت هذه الجملة من قبل، بصوت آخر، في يوم لا تتذكره بوضوح.

ثم غلبها الإنهاك، فنامت.

وغابت الشمس.

خرج إبراهيم إلى ساحة الدار، ونظر حوله فلم يجد ماءً يتوضأ به غير ماء الزير، الذي يخشى استعماله خوفاً من العدوى

المجهولة بالنسبة له، فانحنى وضرب الأرض بكفيه وتيمّم بترابها، ومسح وجهه ويديه.

زهرة:

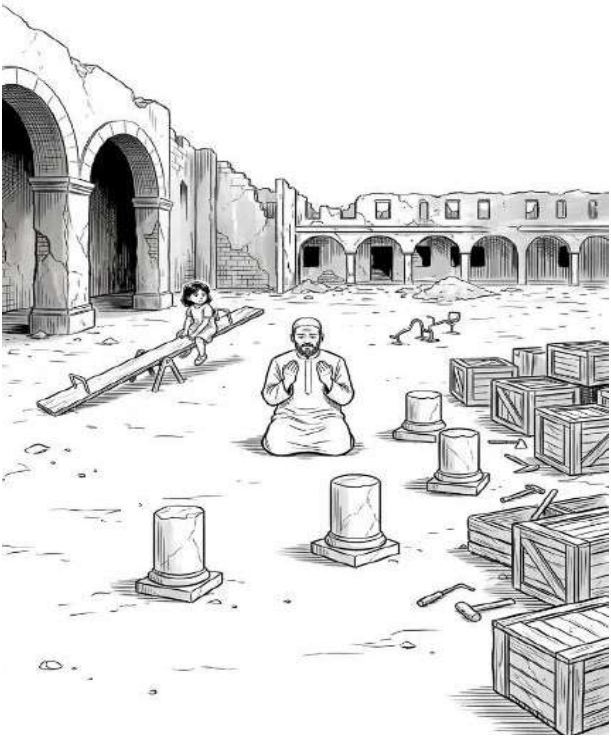
ـــ إنت بتعمل إيه؟

بابا إبراهيم:

ـــ بتيمّم. الميّه في الزير للعيال وللعيانين، مش ليا.

وقف في مواجهة القبلة وصلّى المغرب بخشوع تام وحده في الساحة الخاوية، وزهرة جالسة عند أقرب مورجيحة تراقبه بعينين واسعتين.

كان إبراهيم مخلصاً في صلاته وفي الركعة الأخيرة بكى، بكاءً ثقيلاً، ورفع صوته عند عبارة واحدة:



بابا إبراهيم (وهو ينظر لأساس غرفة عبدون غير المكتملة):

ـــ اللهم لك الحمد على ما رزقتنا.

حين انتهى من صلاته، سألته الصغيرة:

زهرة:

ـــ هو ربنا شايفنا؟

بابا إبراهيم:

ـــ شايفكم طبعاً، وشايف كل حاجة.

زهرة:

ـــ وكان شايفنا من الأول؟

نظر إبراهيم إلى أعمدة الرخام الأبيض المتوهجة في ضوء القمر:

ـــ كان شايفكم... وبيجهّز.

زهرة:

ـــ بيجهّز إيه؟

بابا إبراهيم:

ـــ البيت.

عاد إلى غرفة البابا. جلس على صندوق خشبي صغير قرب الباب، لا على الكرسي ولا قرب الأريكة، وأسند ظهره إلى الجدار.

جلست زهرة أمامه على الأرض وسألته:

زهرة:

ـــ بابا، هو إنت مش هتشوف إخواتي اللي عيانين؟

بابا إبراهيم:

ـــ هاشوفهم طبعاً، وها ساعدهم لما ربنا يأذن. بس دي مش حاجة سهلة، لازم نفكر ونستعد عشان العدوى ما تنتشرش تاني.

زهرة:

ـــ طب وبكر ومنى وإخواتي اللي في البدروم؟

بابا إبراهيم:

ـــ دول لازم أعرف قصتهم كاملة قبل ما نشوف هانعمل إيه معاهم.

زهرة:

ـــ طب مش هيأكلوا ولا هيشربوا؟

بابا إبراهيم:

ـــ لأ طبعاً، ده ربنا يحاسبنا. أكيد هانزلهم أكل وشرب.

إنتي ما تعرفيش إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»؟ وأنا دلوقتي مسؤول قدام ربنا عنهم.

زهرة:

ـــ يعني إيه رسول؟

بابا إبراهيم:

ـــ ده حد ربنا بيبعته للناس يقولهم يعبدوه إزاي.

زهرة:

ـــ طيب ممكن تكلّم ربنا يبعتلنا رسول يقولنا نعالج إخواتي إزاي؟ وكمان رسول يرجّعلنا صحاب عبدون اللي كانوا بيجيبوا أكل؟

بابا إبراهيم:

ـــ مش يمكن يكون ربنا باعتني أنا ليكم؟

زهرة:

ـــ يعني إنت رسول؟

بابا إبراهيم:

ـــ كلنا أوامر ربنا في الأرض وكل حاجة بتحصل بأمره يا زهرة، وكلنا ماشيين في الطريق اللي رسمه هو لينا... بكرة أعلمك كل حاجة.

واطمأنت زهرة ونامت على السجادة كقطة.

ونظر هو إلى الفتاة النائمة، ثم إلى الصورة المعلقة على الحائط لعجوز يبتسم.

بابا إبراهيم (للصورة، بصدق كامل):

ـــ الله لا يرجعك لو كنت عايش، ولو كنت ميت الله يرحمك، ويغفر لك البلاوي اللي سبتها وراك.

ثم نظر إلى فاتن مرة أخيرة، وقال بصوت لا يسمعه أحد، أو هكذا ظن:

ـــ أمانة.

ولم يقل أمانة من، ولا لمن.

وعلى بعد خطوتين من قدميه، في العتمة، كانت عين زيدان اليسرى مفتوحة قليلاً.

لقد سمع كل حرف...وبدأ يستعيد وعيه وإدراكه.

الفصل الثاني
الملكة بح

فتحت فاتن عينيها على سقف تعرفه، ومنديل لا تعرفه ملفوف حول يديها.

لم تطلع الشمس بعد. على السجادة نامت زهرة، وعلى الأرض قرب الكرسي جلس زيدان وظهره إلى الجدار، وعيناه عليها.

نظرت إلى يديها. بقعة دم قديمة نفذت من القماش، وبقعة جديدة تتسع.

فاتن:

ـــ إنت عايش؟

زيدان:

ـــ وإنتي؟

سكتا.

فاتن:

ـــ فاكر إيه اللي حصل؟

زيدان:

ـــ مش فاكر غير إني سخنت. وبعدين الكرسي. وبعدين مفيش.

فاتن:

ـــ وأنا كنت بدفن، مش فاكرة مين. وبعدين مفيش.

أخذ كل منهما ينظر إلى الغرفة كأنه يتأكد أنها غرفة البابا فعلاً.

فاتن:

ـــ إنتوا عملتوا إيه في الرحلة؟ إنت وعبدون. قلتوا هتغيّروا الدار.

زيدان:

ـــ جبنا خيرات كتير أوي. عربيات محمّلة بكل حاجة. أكيد عبدون شايلها.

فاتن:

ـــ وهو عبدون فين؟

زيدان:

ـــ معرفش. نسأل زهرة والراجل بتاع إمبارح، ونفهم كمان مين ده.

فاتن:

ـــ أنا ما أعرفوش.

خفضت صوتها حتى لا توقظ الطفلة:

فاتن:

ـــ أول ما فوّقت إمبارح لقيته لافف إيدي بمنديله وبيطبطب عليها. وأول كلمة قالها كانت عن ربنا. وحسيت إنه طيب.

سكتت.

فاتن:

ـــ بس جسمي كله ارتعش. مش عارفة ليه.

أدار زيدان وجهه إلى الباب كمن سمع شيئاً.

زيدان:

ـــ إنتي تعبانة يا فاتن.

وفُتح الباب.

دخل الرجل في جلابية بيضاء نظيفة، وعلى كفيه بقية تراب التيمم. وقبل أن ينطق، كانت زهرة قد استيقظت عل صوت الباب وجرت إلى فاتن واحتضنتها.

زهرة:

ـــ فاتن صحيت! وزيدان كمان!

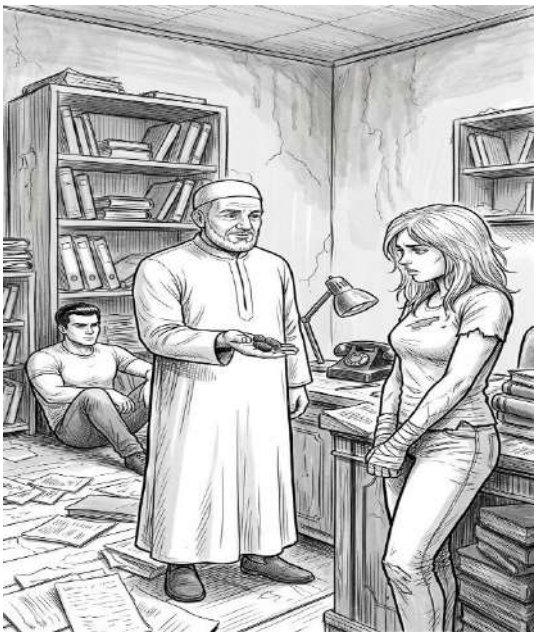
بابا إبراهيم:

ـــ الحمد لله على سلامتكم.

أخرج كيس القماش ومدّ إلى فاتن ثلاث تمرات.

بابا إبراهيم:

ـــ خدي بإيدك اليمين. اللي يحب يخدم لازم يبقى واقف على رجليه.



لم تأخذ فاتن التمرات. نظرت إلى زهرة، ثم إلى الباب الذي في آخر الممر.

فاتن:

ـــ العيال اللي مشيوا. إخواتي اللي كانوا في الجنينة. راحوا فين؟

بابا إبراهيم:

ـــ اتفرقوا في الصحرا.

وضعت فاتن يدها على فمها.

بابا إبراهيم:

ـــ متقلقيش. أنا عندي ناس معرفة قديمة، بيحبوا يعملوا الخير. طلبت منهم يدوروا عليهم. دلوقتي زمانهم قالبين الدنيا لحد ما يجمعوهم.

انفلتت من عينيها دمعة، ثم أخرى.

تقدّم الرجل خطوة، وفتح ذراعيه، وضمّها إليه بذراع واحدة، ومسح على ظهرها مرتين.

وقفت فاتن مكانها. ذراعاها بقيتا على جانبيها، وكتفاها مرفوعان، وأنفاسها محبوسة.

نظرت من فوق كتفه إلى زيدان. وحين انتهت الثواني، تراجعت نصف خطوة، وخفضت عينيها وقالت:

فاتن:

— ربنا يخليك.

ثم مسحت وجهها بكم قميصها، وعدّت التمرات الثلاث في كفها.

فاتن:

— لازم أروح للعيانين. أطمّن عليهم وأراعيهم. بقالهم يومين من غير أكل ولا كمادات.

بابا إبراهيم:

— لأ.

قالها بهدوء، فلم يبدُ رفضاً.

بابا إبراهيم:

ـــ أنا مش هسمح لحد منكم يقرب من العنبر ده تاني. العدوى ماشية بينهم. وأنا هراعيهم بنفسي، مش عايز حد يتعدّى منكم.

فاتن:

ـــ بس عناني والأولاد...

بابا إبراهيم:

ـــ عناني مات يا فاتن. صدقيني يا بنتي، إنتي محتاجة تستريحي. أنا هعالجهم بإذن الله.

انا عندي خبرة، وعندي رُقية شرعية، و(بابتسامة خفيفة) عندي حبة بركة من ربنا.

وإنتي مسؤولة عن اللي لسه صحاء. وزي ما قلت لزهرة، الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

فاتن:

ـــ بس إحنا منعرفش إنت مين.

بابا إبراهيم:

ـــ أنا ربنا بعتني ليكم مش من غير سبب. حكمة يعلمها هو بس. وأنا مليش أي مصلحة، أنا هساعدكم وأمشي.

ودلوقتي كلكم في رقبتي، ولو مؤقتاً.

فاتن:

ـــ طيب إنت بتقول إن أنا مسؤوليتي دلوقتي الأصحاء بس، ومفيش أصحاء أخد بالي منهم. إحنا بس اللي فاضلين.

بابا إبراهيم:

ـــ يبقى اللي فاضلين هما رعيتك، حتى أنا.

سكتت فاتن. ثم قالت ما كانت تريد أن تقوله منذ أن فتحت عينيها:

فاتن:

ـــ وبكر ومنى واللي معاهم؟ هما تحت بقالهم يومين. من غير لا أكل ولا مية.

لم يجب الرجل فوراً.

بابا إبراهيم:

ـــ متقلقيش يا فاتن، كله هايبقى كويس بأمر الله.

التفت إلى زيدان:

بابا إبراهيم:

ـــ قوم يا زيدان. هنتمشى شوية.

ووقف زيدان بعناء، ومسك طرف المكتب ليثبّت نفسه، ثم مشى خلفه.

كانت الريح تحرّك الرمل الخفيف عند أقدام أعمدة الرخام. وقف إبراهيم بينها وبين الباب الحديدي المفتوح، ونظر إلى الأفق.

بابا إبراهيم:

ـــ مش عايز تسألني على حاجة يا زيدان؟

زيدان:

ـــ عبدون فين؟

بابا إبراهيم:

ـــ معرفش عنه حاجة. بس زهرة قالتلي إنه أخد فلوس الدار وعربية جديدة ومشي.

اقترب زيدان من الأرض كأنه يحسب شيئاً.

زيدان:

ـــ أخد ملكة الصحراء.

توقف إبراهيم عن المشي.

بابا إبراهيم:

ـــ ملكة الصحراء؟ يعني إنت عايز تقولي إن الدار دي كانت بتمتلك العربية ملكة الصحراء؟

زيدان:

ـــ كانت بتمتلكها. ولسه بتمتلكها، حتى لو مش موجودة دلوقتي. هترجع هترجع.

ابتسم إبراهيم. كانت ابتسامة صغيرة جداً، سرعان ما اختفت.

بابا إبراهيم:

ـــ الحمد لله. رزق ربنا واسع.

ثم قال، وكأنه يكمل كلاماً آخر:

بابا إبراهيم:

ـــ وفاتن وزهرة؟ كلمتهم؟

زيدان:

ـــ لأ. بس أنا عايز أسأل حضرتك: العيال اللي في الصحرا. مش مفروض ننزل ندور عليهم إحنا؟

نظر إليه إبراهيم نظرة طويلة، وضحك ضحكة قصيرة، ووضع يده على كتفه.

بابا إبراهيم:

ـــ يا زيدان. إنت قوي وكبير وفاهم. مش بتتحرك بمشاعرك زي فاتن. إنت راجل، متفكرش زي الستات.

لم يرد زيدان، لكنه رفع رأسه قليلاً.

بابا إبراهيم:

ـــ الستات خفاف. ميقدروش يفهموا ولا يستحملوا اللي الرجالة بتفهمه. وإلا ليه ربنا إدّانا القوامة عليهم؟ وليه شهادة اتنين منهم بشهادة راجل.

والميراث للراجل ضعف الست. وفي كل حاجة نصفه، ويمكن ربعه كمان. وعشان كدة هاجوزك أربعة؟

ضحك زيدان.

بابا إبراهيم:

ـــ بتضحك على إيه؟ أمال أنت فاكر ليه الراجل ممكن يتجوز أربعة؟ عشان يبقى عنده واحد صحيح! ولا تكون بتضحك على إنك تتجوز أربعة؟ إيه، مش قدها يا بطل؟

انفجر الاثنان بالضحك، وضرب زيدان كفاً بكف. كانت أول مرة يضحك فيها منذ أن أُغمي عليه.

وحين هدأ إبراهيم قال بنبرة جادة:

بابا إبراهيم:

ـــ أنا هاقولك كلام مهم دلوقتي لأني عارف إنك هتفهمني.

شوف يا بطل، مش من مصلحة الدار ولا الأطفال اللي اتفرقوا إنهم يرجعوا دلوقتي خالص. لازم نرتب البيت الأول.

غير كده هنجيبهم يموتوا هنا، ويموتونا معاهم من الجوع والعطش والمسؤولية.

زيدان:

ـــ بس حضرتك قلت لفاتن...

بابا إبراهيم(مقاطعاً):

ـــ فاتن محتاجة كلمة تهدّيها. وإنت راجل محتاج الحقيقة.

سكت زيدان لحظة، ثم قال:

زيدان:

ـــ فهمت.

بابا إبراهيم:

ـــ من النهاردة أنا هعتبرك دراعي اليمين. والنائب بتاعي في الدار لحد ما ترجع الدار دي قد الدنيا.

رفع زيدان ظهره. لمعت عيناه، ثم أخفاهما.

زيدان:

ـــ تعليماتك يا بابا.

بابا إبراهيم:

ـــ وبالنسبة بقي للي في البدروم، نفس الوضع.

مينفعش حد من اللي تحت يطلع دلوقتي لحد ما نرتب الدنيا ونشوف هانعمل إيه. وخد إنت شوية من اللي فاضل من الأكل في المطبخ وشوية ميّه، ونزّلهم للبدروم.

زيدان:

ـــ حاضر.

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا قال: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».

والدار دي لسه بتتعلم تقف على رجليها صح. محتاجة صوت واحد وكله يطيع، مش عشرة أصوات كل واحد ليه رأي. إنت شكلك فاهم يا زيدان.

أما اللي تحت، حسب ما فهمت، ما سمعوش كلام اللي مشي، ولازم نضمن قبل ما يطلعوا إنهم هايسمعوا الكلام.

وإنت تحت لازم يشوفوك قوي، وما يحسوش إن اللي فوق دلوقتي مش أقوياء. إنت صورة الإدارة وجزء منها يا زيدان.

زيدان:

ـــ صوت واحد يا بابا ورأي واحد.

وقبل أن ينصرف سأل إبراهيم:

بابا إبراهيم:

ـــ الناس اللي كانت بتجيب الأكل ليكم. أكلهم ده حلال؟

زيدان:

ـــ حلال يا بابا. أكيد حلال، هما مسلمين زينا.

نزل زيدان إلى المطبخ، وملأ وعاءً بما بقي من الأرز، وحمل جرّة ماء، وسار نحو الباب الحديدي القصير.

كان في رأسه حساب بسيط: بكر يكرهه منذ سنين. ومنى لا تنسى. وفي البدروم بنتان تعرفان عنه ما لا يريد أن يُعرف.

فتح النظارة الصغيرة في الباب.

مرّت لحظة صمت، ثم جاء صوت بكر، متعباً لكن حاداً:

بكر:

ـــ مين؟

زيدان:

ـــ التعيين يا نزيل.

بكر:

ـــ إنت!؟ أمال فين باقي الرجالة؟ وليه سايبنا يومين ومالكومش حس؟ هو عبدون فين يا زيدان؟

زيدان:

ـــ كلوا واسكتوا.

وتقدّم نحو باب سجن النساء، ودون أن ينظر، خشية أن تقع عينه في عين نوران، أول ضحاياه، مدّ الوعاء، فجاءت يد نحيلة وأخذته.

ثم سُمع صوت امرأة، هادئ، بعيد:

الصوت:

ـــ فاتن عايشة؟

لم يجب زيدان. أغلق النظارة، وصعد الدرج بخطوات سريعة.

وفي الممر وجد فاتن واقفة تنتظره، ويدها على الجدار.

فاتن:

ـــ نزلت لهم؟

زيدان:

ـــ آه.

فاتن:

ـــ وهيطلعوا؟

كان إبراهيم قد وصل خلفها، وقال بهدوء:

بابا إبراهيم:

ـــ مقدرش أخرجهم دلوقتي يا بنتي. دي حدود ربنا.

لازم الأول أفهم هما محبوسين ليه. واللي ألاقيه مظلوم هاخرجه. بس مش دلوقتي.

فاتن:

— بس...

بابا إبراهيم(مقاطعاً):

— من غير بس يا حبيبتي أنا لو خرجتهم وانشغلت بمشاكلهم، كلنا هنموت من الجوع.

خلينا نسيبهم شوية كمان. هما استحملوا اللي فات، وهيستحملوا شوية كمان.

ودلوقتي خلينا نركز في إزاي نوفر أكل ليهم ولينا ولإخواتك.

وكمان مصاريف اللي هيلف ويدور على اللي تاهوا في الصحرا.

نظرت فاتن إلى زيدان، ثم إلى الأرض.

فاتن:

— ماشي.

قالتها بصوت لا يكاد يُسمع، ثم صمتت.

وعند الظهر جلس إبراهيم تحت أقرب نخلة بلاستيكية، وبجواره زهرة، تحاول أن تصنع من النوى الصغير صفاً من الأسوار.

زهرة:

ـــ هو إنت إمبارح كنت لابس بنطلون وقميص زي لبس البابا. ودلوقتي لابس اللبس ده ليه؟

بابا إبراهيم:

ـــ ده لبس الرسول عليه الصلاة والسلام. كان بيلبس جلابية. وزوجاته كمان كانوا بيلبسوا لبس الستات. وربنا أمرهم يلبسوا نقاب.

زهرة:

ـــ يعني إيه نقاب؟

بابا إبراهيم:

ـــ حاجة بتغطي الست كلها. تحميها، وتحمي الرجالة منها.

زهرة:

ـــ تحمي الرجالة منها إزاي؟ هما مالهم بلبسها؟

بابا إبراهيم:

ـــ عشان جمالها يخليهم يبصوا عليها. فياخدوا سيئات.

زهرة:

ـــ يعني الجمال حاجة وحشة؟

بابا إبراهيم:

ـــ لأ. الجمال حلو. بس لصاحبه.

زهرة:

ـــ وصاحبه مين؟

بابا إبراهيم:

ـــ مالكها. يعني زوجها.

نظرت زهرة إلى الأسوار الصغيرة التي صنعتها.

زهرة:

ـــ هو كل ست لازم يبقى ليها مالك؟

بابا إبراهيم:

ـــ آه.

زهرة:

ـــ طب أنا لو لبست النقاب، مين هيبقى الملك بتاعي؟

ضحك.

بابا إبراهيم:

ـــ إنتي لسه صغيرة.

زهرة:

ـــ طب فاتن؟ كبيرة.

لم يرد. حرّك مسبحته ببطء، وتمتم بصوت لا يسمعه إلا هو:

ـــ جميلة دي، ملاك.

زهرة:

ـــ أنا سمعتك. إنت قلت إنها جميلة. كده إنت خدت ذنب. لازم تغطيها بقي بنقاب عشان متاخدش ذنوب تاني.

توقفت المسبحة.

نظر إبراهيم إلى الطفلة طويلاً، ثم إلى الباب المفتوح لغرفة البابا.

بابا إبراهيم:

ـــ عندك حق يا زهرة. بس ربنا جعل لكل ذنب مخرج حلال.

زهرة:

ـــ إيه المخرج؟

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا يهدي. هنشوف.

أخذت زهرة تعدّ النوى من جديد.

زهرة:

ـــ هو إنت أمتي هتجيب العيال الجداد اللي قلتلي عليهم أول ما شوفتني؟ ولما يجوا، دول بدل إخواتي؟

بابا إبراهيم:

ـــ لأ يا زهرة. مع إخواتك.

زهرة:

ـــ إنت قلتلي إمبارح بدلهم.

بابا إبراهيم:

ـــ قصدي إنهم يبقوا معاهم لما يرجعوا.

زهرة:

ـــ ومين هيرجعهم؟

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا.

أومأت، لكنها لم تقتنع. وضعت آخر نواة في آخر سور، وقالت بصوت منخفض:

زهرة:

ـــ هو ربنا بيشتغل أبطأ من الناس؟

لم يرد إبراهيم.

وفي غرفة البابا، كان زيدان وحده.

أغلق الباب بظهره، وأصغى. ثم رفع السماعة السوداء، وأدار الأرقام من الذاكرة.

زيدان (همساً):

ـــ ألو؟ أنا زيدان.

وسكت، وكأنه يسمع كلاماً طويلاً.

زيدان:

ـــ لأ. لسه عايش.

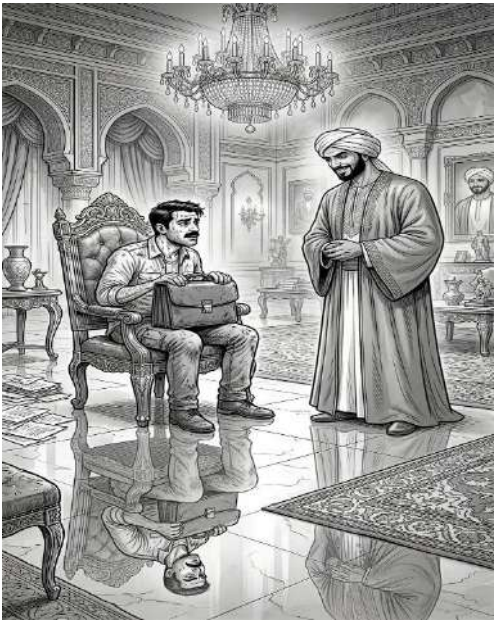
وفي قصر شيخون كان الجو بارداً، وكانت أرضية القاعة كالمرآة.

جلس عبدون على طرف كرسي كبير، وعلى ركبتيه الحقيبة الجلدية.

ملابسه مغبرة، وشعره ملتصق بجبينه، ويداه ترتعشان على القفل.

شيخون:

ـــ إيه يا عوبد؟ وشك أصفر ليه؟



عبدون:

ـــ الدار يا مولانا... العيانين زادوا أوي. وأنا... مش عارف أتصرف.

شيخون:

— وزيدان؟

عبدون:

— زيدان؟ زيدان كويس. كان معايا.

ابتسم شيخون ابتسامة هادئة.

شيخون:

— استناني.

دخل الغرفة المجاورة وأغلق الباب.

بقي عبدون وحده مع الحقيبة، ونظر إلى يديه. كانتا ما زالتا ترتعشان.

من خلف الباب جاء صوت شيخون مكتوماً، يتحرك بين الكلمات:

شيخون:

ـــ ألو؟ أيوه. عندي. قاعد قدامي.

سكت.

شيخون:

ـــ إيه؟ ... حاول يقتلك؟ ... وعايش؟

سكت أطول.

شيخون:

ـــ ... تمام. تمام. هعمل كده.

خرج شيخون وهو يبتسم، وجلس مقابل عبدون.

شيخون:

ـــ شوف يا بطل. الفلوس اللي معاك دي تعيشك ملك. بس زيدان مش هيسكت.

عبدون (يضحك بعصبية):

ـــ زيدان مات.

شيخون:

ـــ زيدان لسه مكلمني دلوقتي. وبيقول إنك حاولت تقتله. وجاي وراك.

سقط شيء في صدر عبدون، ولم يعرف ما هو.

عبدون:

ـــ أنا؟ أنا ما هربتش! أنا كنت رايح مهمة أدور على حد ينقذ الدار ويعالج العيال وواخد الفلوس عشان كدة!

شيخون:

ـــ طبعاً مهمة.

إنت أخويا يا عبدون وعايز مصلحتك. اهرب يا عبدون. روح أي دار أيتام من اللي ناحية الغرب.

وافتكر ولاد عمك قالولك إيه؟ أي حاجة محتاجها من الغرب هيخلصوهالك. هما هيحموك هناك.

شوفت بقي إني كنت صح؟ لما قولتلك إنهم بيحموا أصحابهم؟

قام عبدون ومسك الحقيبة، ثم توقف.

عبدون:

ـــ تمام. هاتحرك العربية برة.

شيخون:

ـــ لأ! ماتروحش بملكة الصحراء.

الناس دي بتحب تظهر أنها عندها قانون وبتحترمه، وهيصادروها منك ويقولوا إنها بتاعة الدار.

سيب ملكة الصحراء هنا. وأنا هبعت معاك أفخم عربية عندي توصلك، وتديهم بالمرة رسالة مني أوصّيهم عليك.

عبدون:

ـــ بس ملكة الصحراء بتاعتي!

شيخون:

ـــ طبعاً بتاعتك. بس الدار...

عبدون:

ـــ الدار ما تعرفش!

شيخون:

ـــ ولاد الغرب بيحبوا الورق. وإنت مش معاك ورق.

سكت عبدون. نظر إلى النافذة، حيث وقفت سيارته الكبيرة عليها غبار الصحراء.

عبدون:

ـــ أنا هقعد عندك بس يومين. مؤقتاً.

شيخون:

ـــ طبعاً. مؤقتاً. المؤقت عندنا بيطول وده مش في مصلحتك.

وفي غرفة البابا، حين خيّم المساء، وقف إبراهيم وحده أمام صورة البابا المعلقة على الحائط.

كان زيدان قد خرج، وكانت فاتن قد نامت على الأريكة، تحتضن زهرة.

بابا إبراهيم (للصورة):

ـــ إنت كنت بتأكلهم منين يا عم؟ وبتربيهم إزاي؟

كان العجوز يبتسم في الإطار.

بابا إبراهيم:

ـــ وإزاي عيل صغير بعدك يجيب ملكة الصحراء مرة واحدة؟

وسكت.

ثم تذكر كلام زهرة: جم ناس غُرب، ومعاهم أكل كتير، وعبدون بقي بيضحك زيهم.

مدّ يده إلى التليفون الأسود. لم يرفع السماعة، وإنما وضع كفه عليها فقط، ووقعت عينه على الأجندة السوداء.

ابتسم، ونظر إلى الصورة، ثم نادى:

يا زيدان!

الفصل الثالث
الغزال مش سعيد

لم يعد سعيد يعرف كم يوماً مشى.

في اليوم الأول عدّ الخطوات. في الثاني عدّ الظلال. وفي الثالث توقف عن العدّ، وصار يمشي كما يمشي الماء، حيث تنزل الأرض.

كان معه زجاجة بلاستيك فيها ثلث ماء، أخذها من درج السيارة القديمة قبل أن يهرب من دار الأمل. وكان يعدّ حتى المئة قبل كل جرعة، ثم يعدّ مئة أخرى.

في اليوم الثاني سمع خلفه صوتاً يقول:

— سعيد.

التفت. لم يكن هناك غير الريح تجرّ الرمل على الرمل.

في المساء سمع الصوت مرة أخرى، فلم يلتفت. أسرع في المشي.

ومرّ بشجرة ميتة بلا ورق، وفروعها تشبه كرسياً.

فتح فمه ليسخر. كانت في فمه جملة جاهزة منذ أيام عن الكراسي التي تنبت في كل مكان.

لم تخرج الجملة. أغلق فمه واستمر في المشي بلا وجهة.

في صباح لا يعرف رقمه رأى خطاً.

كان خطاً من مواسير حديدية صدئة، تبرز من الرمل على مسافات متساوية كشواهد قبور بلا أسماء. أول شيء مستقيم يراه منذ أيام.

لم يقرر أن يتبعه. كان الخط ببساطة الشيء الوحيد في الصحراء الذي يشير إلى مكان.

مشى بمحاذاته نصف يوم. وقبل أن يرى شيئاً سمع: قطرة، ثم قطرة، ثم قطرة.

ماسورة أخيرة، مكسورة عند فوهتها، تبكي ببطء في حوض إسمنتي متشقق. حول الحوض نبت قصب أخضر، وثلاث نخلات هزيلة، وطين أسود.

غيّرت ماسورة الميّه التالفة معالم رقعة من الصحراء: تكوّنت البركة، ونمت النباتات، كأنها كانت تنتظر الأيتام.

وقف سعيد أمام الماء. ماء حقيقي، أخضر الحواف، تعوم فيه ذبابة وتحتها طيف اسماك لا يعلم كيف وصلت لبركة في وسط الصحراء.

ركع وشرب بيديه، ثم تقيأ، ثم شرب مرة أخرى ببطء. ثم نام حيث كان، دون أن يقرر.

استيقظ على خشخشة في القصب، وعلى إحساس بأن أحداً يراقبه.

وعلى بعد خطوات منه كان طفل ممدداً على بطنه، وفي يده عصا مبرية موجهة إليه. شعره ملتصق بجبينه، وشفتاه متشققتان، وقدماه ملفوفتان بقطعة قماش بالية.

سالم:

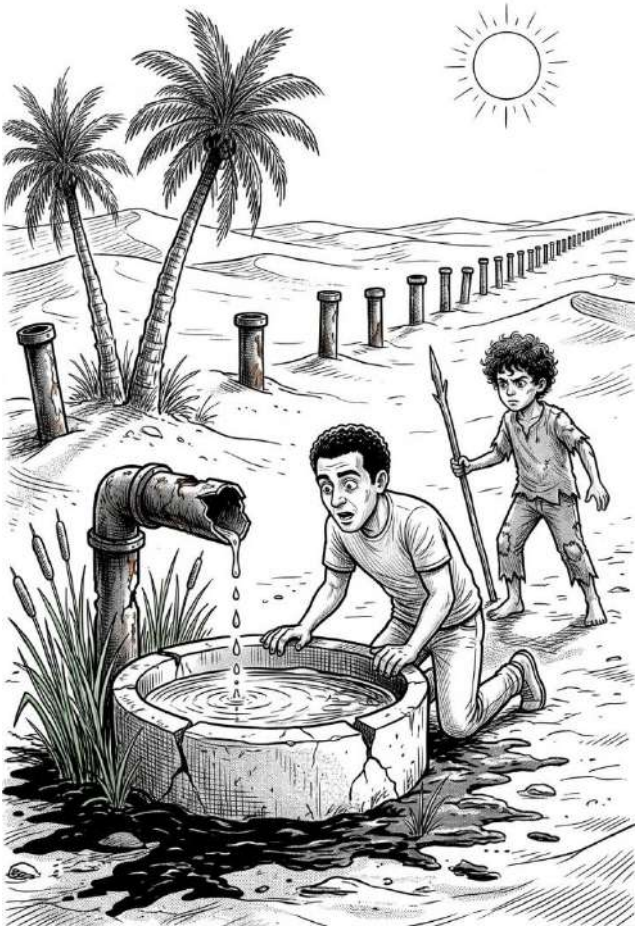
ـــ ابعد.

سعيد (بصوت أجش):

ـــ أنا قاعد مكاني.

سالم:

ـــ ابعد عن بركة ال ميّه. أنا لقيتها الأول.



بقليل من التركيز تعرف سعيد علي أخيه.

أنه سالم. اليتيم الذي كان يقف في الصف الأول كلما هتف أحد لعبدون. اليتيم الذي التفت وراءه عند البوابة، كأنه يستأذن قبل أن يذوب في الصحراء.

سعيد:

ـــ سالم؟

نزلت العصا ببطء.

سالم:

ـــ سعيد؟

سعيد:

ـــ لأ. عفريت سعيد.

خرجت الجملة ضعيفة. لم يضحك سالم علي نكات سعيد كعادته. اقترب خطوتين ووقف.

سالم:

ـــ إنت ليه مشيت وسبتنا؟

سعيد:

ـــ طب واللي قعد عملك إيه؟

سالم:

ـــ إنت اللي كنت بتقول مفيش فايدة.

لم يرد سعيد.

سالم:

ـــ وإحنا حفظناها. فمشينا.

جلس سعيد على حافة الحوض. فتح فمه ليرد، وانتظر الجملة التي كانت تأتيه دائماً في مثل هذه اللحظة.

لم تأتِ.

سالم:

ـــ قلتها كتير. قدام كل العيال. وإنت بتضحك.

سعيد:

ـــ كانت نكتة.

سالم:

ـــ ماكنتش مضحكة على فكرة. كانت بتخوّف.

مرّ صمت لا يقطعه غير صوت القطرة.

مسح سعيد وجهه بكفه، ونظر إلى الصف الطويل من المواسير.

سعيد:

ـــ الماسورة دي بتوصل لفين؟

سالم (بعد لحظة):

ـــ للدار. البابا مرة قال إن زمان الميّه كانت بتيجي منها.

سعيد:

ـــ وإحنا كنا بنستنى عربية تجيبلنا ميّه؟

لم يجب سالم. أخذ يعبث بعصاه في الطين.

سالم:

ـــ على فكرة، أنا بنام فوق الطين عشان محدش ياخد البركة.

سعيد:

ـــ ومين اللي هياخدها؟

سالم:

ـــ مش عارف. بس أي حاجة بتتساب، حد بياخدها.

نظر إليه سعيد طويلاً. كان صاحب العشر سنوات منذ يومين طفلا في الدار، والان يتكلم كرجل الستين.

في اليوم التالي بنيا حائطاً من الطين.

انهار.

في اليوم الذي بعده بنياه من جديد. انهار.

سالم (وهو يمسح الطين عن وجهه):

ـــ مش البابا كان بيقول القماش بيحل محل الصلب؟

سعيد:

ـــ ما تفكرنيش.

لفّا قطعة قماش بالية مبللة حول القصب، ورصّا الطين فوقها، وتركا الشمس تعمل. وحين جفّ الحائط اهتز مرة، ثم وقف.

سعيد (وهو ينظر إليه):

ـــ الحيطة دي بتكرهني يا عم. اثبتي بقي الله يكرمك.

ضحك سالم. ضحكة قصيرة مبحوحة، خرجت منه كأنها سقطت. ثم وضع يده على فمه كأنه ارتكب خطأ.

ولم يعلّق سعيد.

في اليوم الثالث جاءت طفلة. ظهرت عند طرف القصب، صغيرة جداً، تحتضن لعبة قماشية بالية لها عينان ساحرتين.

جلست عند الحوض وشربت بأطراف لسانها كالقطط، ولم تنظر إلى أحد.

سالم:

— دي ورد. بتيجي كل شوية تشرب وتمشي. مش عارف بتروح فين ولا بتيجي منين.

سعيد:

ـــ طب ما تسألها؟

سالم:

ـــ سألتها. ما اتكلمتش ولا كلمة من يوم ما مشينا.

وضعت ورد اللعبة عند فتحة العشة، ووجّهت وجهها إلى الصحراء.

وفي الليل كان سالم ينام بسرعة، كما ينام الذين تعوّدوا ألا ينتظروا شيئاً.

أما سعيد فكان يجلس عند الحوض ويسمع القطرة تقع في الماء، ويعدّها.

لم يكن يعدّها ليعرف شيئاً. كان يعدّها لأن الصمت بعد القطرة أطول من اللازم.

ومن حين لآخر كان الصوت يعود:

ـــ سعيد.

لم يلتفت. لكنه لم يعد يسرع.

وفي الصباح حاول إشعال النار.

فرك عودين ساعة كاملة. سخنت يداه ولم يخرج دخان. ضرب حجراً بحجر. تطايرت شرارة ولم تفعل شيئاً.

سعيد (دون أن ينظر إلى سالم):

ـــ البابا كان بيولع البوتجاز إزاي؟

سالم:

ـــ بيحك الكبريت.

سعيد:

ـــ طب والكبريت فين؟

سالم:

ـــ عند البابا.

لم يعلّق سعيد. ألقى العودين من يده وجلس.

وفي العصر ملأ الزجاجة من الحوض، وتركها على الرمل قرب كومة من زغب القصب الجاف. ونام.

حين استيقظ كان خيط رفيع من الدخان يرتفع من الزغب.

نظر إليه طويلاً. ثم ضحك.

ضحك بصوت عالٍ، لأول مرة منذ خرج من الدار، حتى جاء سالم يجري ظاناً أنه جُنّ.

سالم:

ـــ بتضحك على إيه؟

سعيد:

ـــ على الميّه. كنت بعدّ مية مرة قبل ما أشربها. وطلع الميّه هي اللي بتولّع.

لم يفهم سالم. لكن النار الصغيرة اشتعلت، ونفخ عليها الاثنان معاً حتى كبرت.

وفي الأيام التالية تعلّم أشياء أخرى بالخسارة. حفر قرب الحوض حفرة، حيث تنزل الحيوانات ليلاً، وغطاها بالقصب والطين.

في الصباح الأول لم يجد شيئاً. في الثاني وجد ضباً ذا ذيل مدبب، أكله مع سالم نصفين.

وفي الثالث سمع من الحفرة صوتاً لم يسمعه قبل ذلك: نفس ثقيل، ودقات حوافر على الطين.

كان غزالاً. صغيراً، بلون الرمل، وقرناه قصيران يميلان إلى الخلف. وساقه الأمامية منحنية بزاوية لا تحتملها ساق.

أحضر سعيد حجراً حاداً ورفعه.

نظر الغزال إليه بعينين سوداوين واسعتين، ولم يتحرك.

مرّت لحظة طويلة. أنزل سعيد الحجر.

سعيد:

ـــ لأ.

جلس على حافة الحفرة.

سعيد:

ـــ أنا مش هاقتلك. إنت سامع؟ مش هاقتلك. بس متتحركش. رجلك...

أحضر عوداً مستقيماً من فرع النخلة، ومزّق شريطاً من طرف قميصه.

سعيد:

ـــ اسمع. أنا مش دكتور. ولا عمري كنت. بس هاحاول.

أمسك الساق برفق. ارتجف الغزال كله، لكنه لم يرفس.

سعيد:

ـــ آه. كده. أنا عارف إن بيوجع. أنا برضه كنت فاكر إني مش بتوجع.

لفّ الشريط حول الساق والعود، وعقده، وشدّه.

سعيد:

ـــ بصّ. ده عضمة كبيرة. عضمة جديدة. وإنت هتبقى زي الفل. بس ما تفقدش الأمل. سامع؟ ممنوع.

ثم أحضر حفنة من التمر الأخضر من النخلات الثلاث، ومدّها بكفه. بعد تردد، مدّ الغزال فمه وأكل.

سعيد (يضحك رغماً عنه):

ـــ شفت؟ رب ضارة نافعة. كسرة رجلك جت بفايدة. هتاكل وتشرب ببلاش، وأنا اللي هخدمك. وبكرة يا عم أجيبلك قصب أحلى من ده.

ونقله في الليل إلى تجويف بين الكثبان خلف النخلات، حيث لا يصل أحد. ولم يقل لسالم شيئاً.

وفي كل ليلة بعدها كان يغيب ساعة. وبيقول: بصطاد. ويعود ويداه ملطختان بالطين الأخضر.

وفي دار الامل، عند الفجر، وفي غرفة البابا كان إبراهيم يقرأ بصوت منخفض، وفاتن تحمل إليه كوب شاي.

وضعت الكوب على المكتب. وقبل أن تبتعد، قال دون أن يرفع عينيه:

بابا إبراهيم:

ـــ اقعدي.

جلست على حافة الأريكة. لم ينظر إليها. كان ينظر إلى المصحف المفتوح أمامه، وإلى الكوب، وإلى أي شيء غيرها.

ودخل زيدان.

بابا إبراهيم:

ـــ يا زيدان كويس أنك جيت دلوقتي كنت هنادي عليك. من النهاردة محدش يقعد مع فاتن لوحده. ولا إنت ولا أي وولد تاني.

زيدان:

ـــ ليه يا بابا؟ إحنا كلنا إخوات.

بابا إبراهيم:

ـــ انا من ساعة ما جيت وانا شايف وضع غلط وكنت مستني تبقوا كويسين أنتوا مبقتوش أطفال يا أولاد أنتوا كبرتوا وبقيتوا

مكلفين والخلوة بينكم حرام. ما أجتمع رجل وأمراءه الا وكان الشيطان ثالثهم.

لم يسمع اليتيمان كلمة مكلفين من قبل لكنهم أدركوا ما يريد أن يقوله بابا إبراهيم.

نظر زيدان إلى فاتن الجالسة، ثم إلى الرجل الجالس معها.

زيدان:

— بس حضرتك قاعد معاها وحضرتك برضه راجل.

بابا إبراهيم:

— أنا غيرك يا زيدان. أنا مسؤول عنها.

سكت زيدان. ثم أخرج الرجل من درج المكتب شالاً طويلاً داكناً، ومدّه إلى فاتن، وعيناه على الأرض.

بابا إبراهيم:

— خدي دي يا بنتي غطي بيها شعرك حرام هو إيه البابا ده مكنش بيكلمكم عن شرع ربنا أبدا.



نظرت فاتن إلى الشال، ثم إلى زيدان. لم يقل شيئاً.

أخذت الشال، ولفّته على شعرها بيدين بطيئتين.

عندها فقط رفع إبراهيم عينيه إليها. ثانيتين. ثم خفضهما إلى المصحف.

وقف زيدان عند الباب وحكّ فكّه، كمن يحاول أن يحلّ مسألة حساب لا يعرف أولها من آخرها.

زيدان (لنفسه):

ـــ ربنا يستر.

وفي اليوم السادس وصل للواحة بعض أيتام دار الأمل الصغار.

اثنان من الشرق، يمشيان متقاربين، كل منهما ممسك بطرف قميص الآخر حتى لا يضيع.

وثلاثة معاً، أكبرهم يرفع زجاجة فارغة كالراية.

وطفل في الثانية عشرة يحمل أخاه الأصغر على ظهره منذ يومين، وحين وضعه على الأرض سقط الاثنان معاً.

حين رأوا سعيد توقفوا.

لم يجرِ أحد. وقف الأول، ياسين، يحدق فيه. ثم جاء بخطى بطيئة، وضرب صدره بكفيه معاً.

ياسين:

ـــ يا سعيد شوفت حصلنا إيه بعد ما أنت مشيت. سعيد إنت مشيت ليه؟

ضربه مرة أخرى. ثم أخرى. ثم أمسك قميصه وانكسر وجهه.

أخوه إياد، الصغير، كان قد تعلق بساق سعيد.

إياد:

ـــ إحنا كنا فاكرينك مت.

سعيد (مازحاً):

ـــ أحم أحم أنا فعلا مت إيه كل شوية هاقول إن أنا عفريت سعيد متقول حاجة يا سالم.

إياد:

ـــ ما تهزرش!

وبكى. وبكى الثلاثة الآخرون، وجروا، وتعلقوا به من كل جهة. وقف سعيد بين الأذرع، ويداه مفتوحتان في الهواء، لا يعرف أين يضعهما.

ثم وضعهما على رؤوسهم، واحداً بعد آخر.

سعيد (مبتسما):

ـــ طيب. طيب. كفاية. مش عارف أخد نفسي.

لم يكفّوا.

وفي الليل، حول النار الصغيرة، جلسوا يأكلون التمر القليل. وسأل سعيد بصوت لا يشبه صوته:

سعيد:

ـــ فاتن تعرفوا حاجه عنها طمنوني؟

ياسين:

ـــ فاتن كانت واقعة. فوق القبر.

سعيد:

ـــ واقعة إزاي؟

ياسين:

ـــ نامت. وما قامتش.

لم يتحرك أحد.

سعيد:

ـــ عيانة؟ ولا...

ياسين:

ـــ مش عارف. ماقربناش منها خوفنا.

ظلّ سعيد ممسكاً بقصبة، وأخذ يكسرها قطعاً صغيرة، قطعة بعد قطعة.

سعيد:

ـــ والعيانين؟

إياد:

ـــ شوية دفنتهم فاتن والباقي في العنبر بس الباب كان مقفول. كانوا بيكحّوا.

سعيد:

ـــ ومين كان بيدخلهم؟

إياد:

ـــ عناني.

سعيد:

ـــ وعناني فين؟

ياسين:

ـــ نام جنبهم. وما قامش.

سعيد:

— وبكر؟ ومنى؟ ونوران؟

حسن:

— تحت. محدش نزل لهم.

سعيد:

— وزيدان؟

حسن:

— على الأرض جنب الكرسي. وعبدون ركب العربية الكبيرة وجري.

سعيد:

— جري؟

حسن:

— كان بيجري أكن حد بيجري وراه.

سعيد:

كسر سعيد القصبة الأخيرة، ونظر إلى القطع الصغيرة في كفه، ثم قال دون أن يرفع عينيه:

سعيد:

— طيب. كلوا.

وفي نهاية الأسبوع كانوا ثمانية. وفي الحوض ثلاث سمكات صغيرة كالإبر، اصطادها سعيد بقميصه.

وقف الثمانية حول الحوض، وكل واحد ينظر إلى السمكات الثلاث.

حسن:

ـــ الكبير ياكل الأول.

سالم:

ـــ اللي لقى البركة ياكل الأول.

حسن:

ـــ يعني هو انت حفرتها بإيدك؟ دي كانت موجودة قبلك.

سالم:

ـــ دي كانت موجودة قبلنا كلنا.

صمت الباقون، ونظروا إلى سعيد. كانت العيون كلها عليه، كما نظرت من قبل إلى كل من وقف فوق شيء عالٍ.

سعيد (دون أن يقوم):

ـــ الصغير ياكل الأول.

حسن:

ـــ ليه؟

سعيد:

ـــ عشان الكبير بيستحمل.

حسن:

ـــ ومين قال إنك إنت اللي تقرر؟

سعيد:

ـــ محدش قال.

حسن:

ـــ يعني إنت اللي هتحكم؟ هتبقى البابا هنا يعني؟

سعيد:

ـــ لأ. ومحدش هيحكم. وممنوع حد يقولي كلمة بابا.

ضحك أحدهم، فسكت حين لم يضحك أحد.

سالم (بصوت خافت):

ـــ أيام البابا مكنش حد بيتخانق.

سعيد:

ـــ مكنش حد بيتكلم.

مرّت لحظة طويلة. ثم أخذ سعيد قصبة، وقسم السمكات الثلاث ثمانية أقسام متساوية، وناول الصغيرة ورد أول قطعة.

أخذتها ورد ولم تأكلها. قسمتها نصفين، ومدّت النصف إلى اللعبة.

وفي مساء اليوم السابع قالت ورد، دون أن يسألها أحد:

ـــ في حد هناك.

وكانت أول كلمة تقولها منذ أن خرجت من الدار.

عند قمة تل رمال كان ظل صغير ثابت لا يتحرك.

نهض سعيد. لم يركض. مشى والرمل يتحرك تحت قدميه، حتى صار الظل طفلاً.

كان مظبوط. شفتاه ملتصقتان من الجفاف، وفي يده اللعبة الزرقاء المكسورة.

مظبوط:

ـــ إنت سعيد؟

سعيد:

ـــ آه.

مظبوط:

ـــ أنا مظبوط.

سعيد:

ـــ عارف. إنت واحشني أوي.

وقف كل منهما ينظر إلى الآخر. كان الطفل ينظر كمن يتأكد أن شيئاً لم يسرقه أحد.

مظبوط:

ـــ إنت مش مشيت؟

سعيد:

ـــ مشيت.

مظبوط:

ـــ وأنا كمان.

سعيد:

ـــ كنت رايح فين؟

مظبوط:

ـــ معرفش. مشيت زيك وخلاص.

ثم قال بصوت منخفض:

مظبوط:

ـــ فاتن قالت لينا إنك مش جبان. قالت إنك بس تعبت. وإن من حق أي حد يتعب.

جلس سعيد على الرمل فجأة، كأن أحداً سحب الأرض من تحته.

سعيد:

ـــ هي بتكدب.

مظبوط:

ـــ لأ. فاتن عمرها ما كدبت.

وضع سعيد ساعده على وجهه. وبقي هكذا طويلاً.

جلس مظبوط بجواره. ثم أدار وجهه إلى الأفق، وأخذ ينظر إليه باهتمام كبير، كأنه يفحصه.

وقف سعيد واصطحب الصغير إلي بركة الميّه ومد يده ومسح وجه مظبوظ بالماء وبلل شفتاه ثم سقاه

وتوجها إلى الحائط الذي بناه سعيد مع سالم، وكان قد صار أربعة حوائط شكلت عشة.

وحين دخلا، وقف مظبوط عند بابها وعدّ الأولاد بصوت منخفض:

ـــ واحد. اتنين. تلاتة. أربعة. خمسة. ستة. سبعة. تمانية.

ثم جلس.

مظبوط:

ـــ وأنا تسعة.

سالم:

ـــ وسعيد عشرة. بتعدنا ليه؟

مظبوط:

ـــ عشان لو حد ضاع، نعرف.

ونام الطفل بسرعة، واللعبة الزرقاء في قبضته.

في العتمة سحب سعيد خيطاً أسود من طرف قميصه، وأخذ اللعبة من يد مظبوط بحذر.

كانت ذات اللعبة التي كسرها عبدون يوم سجن الصغير وكانت اللعبة في يد الصغير النائم قطعتين. أمسكهما معاً وأخذ يلفّ الخيط حولهما.

سالم (من ركنه):

ـــ هتنفع؟

سعيد:

ـــ لأ.

سالم:

ـــ طب بتعملها ليه؟

سعيد:

ـــ معرفش.

وفي الفجر استيقظ مظبوط فوجد اللعبة مربوطة بخيط أسود إلى جوار رأسه.

مظبوط:

ـــ أنت اللي صلّحتها يا سعيد صح.

سعيد (دون أن يفتح عينيه):

ـــ ربطتها بس.

مظبوط:

ـــ يعني فيه فايدة أهو مش كل حاجة مفيش فايدة الرخمة بتاعتك دي.

فتح سعيد عينيه.

سعيد:

ـــ ما تقولش كده.

مظبوط:

ـــ ليه؟

سعيد:

ـــ ما أعرفش. متقولش وخلاص.

وفي الأيام التالية الصغار سعداء منهمكين في عمل دؤوب.

علّمهم سعيد وسالم كيف يرصّون القصب، وكيف يلفّون القماش البالي المبللة، وكيف يتركون الشمس تعمل.

وانهارت حيطان كثيرة، وضحك الأولاد عليها أكثر مما بكوا.

وصارت العشة عشتين، ثم ثلاث عشش، ثم أربعاً.

وفي ظهر اليوم الثامن، بينما كان ياسين يضرب الطين بيده، سأل طفل صغير وهو يناوله قماشة:

الطفل:

ـــ هو البابا اللي علّمك تبني كده يا سعيد؟

توقفت اليدان عن العمل.

سعيد:

ـــ لأ.

الطفل:

ـــ أمال مين؟

سعيد:

ـــ محدش. اتعلمت لوحدي. وقعت الحيطة على دماغي أنا وسالم تلات مرات والرابعة عرفنا سرها.

الطفل:

ـــ والبابا ما علّمناش ليه؟

لم يجب سعيد فوراً. ظل ينظر إلى الحائط الذي يرتفع أمامه.

سعيد:

ـــ البابا كان بيعمل كل حاجة بنفسه. كان حنين أوي. كان بيشيل عننا كل حاجة. ولما راح، ما عرفناش حتى نعيش جوة الحيطان اللي هو بس اللي بناها.

مرّت ريح خفيفة على الطين.

سعيد:

ـــ ياريته ما كان حنين. ياريته كان قاسي وشقّانا. يمكن كنا عمّرنا الدار.

لم يفهم الطفل الجملة كلها، لكنه فهم أن أحداً لن يضحك.

وفي الدار كان البدروم ساكناً.

نزل زيدان بالوعاء والجرّة، ووقف عند النظارة الصغيرة، وعيناه على الأرض.

جاء صوت بكر قبل أي شيء آخر، قوياً هذه المرة:

بكر:

ـــ أنا سمعت. في راجل جديد.

زيدان:

ـــ مفيش حد.

بكر:

ـــ مفيش حد وبيأذّن الصبح؟ هو عبدون أعلن اسلامه.

لم يرد زيدان. مدّ الوعاء.

بكر:

ـــ قول له إن بكر عايز يقابله. قول له إن الشرعية معايا.

وفي الزنزانة جاء صوت يتثاءب:

صوت من الزنزانة:

ـــ يعني إيه شرعية يا بكر؟ بقالك ساعة بتقولها.

بكر (بغضب شديد):

ـــ يعني أنا.

وفي الجهة الأخرى كان الصمت أطول.

نزل زيدان خطوتين إلى باب سجن النساء. لم يرفع عينيه. كان يعرف أن هناك عينين على الجانب الآخر من الفتحة، ويعرف أي عينين.

مدّ الوعاء، فجاءت يد وأخذته، ويد أخرى أمسكت بمعصمه لحظة، ثم تركته.

وجاء صوت منى، هادئاً جداً:

منى:

ـــ إنت مش بتبص في عينيا ليه يا زيدان.

زيدان:

ـــ كلوا.

منى:

ـــ طب ولا في عينين نوران ليه إيه خايف من حاجة.

لم يرد.

منى:

ـــ الأكل بيتقسم عندي. محدش يمد إيده قبل ما أقول. يا نوران، حطي الأكل هناك.

ثم، بصوت لا يعلو:

منى:

ـــ وقول للراجل اللي فوق إننا مش بنتكلم مع الحرس. عايزين نتكلم مع اللي ماسك الدار.

زيدان:

ـــ الراجل ده مشغول ده مجاش لقي دار لقي خراب نحمد ربنا ونشكر بابا إبراهيم بدل ما كل واحد عامل فيها زعيم.

منى (بحدة):

ـــ الراجل ده هيتفرغ يا زيدان.

لم يرد. صعد الدرج، ويده على الحائط، وهو لا ينظر خلفه.

وفي الخلف، كانت نوران تحدق في الفتحة التي اختفى منها وجهه، وفي يدها حفنة أرز، وفمها لا يتحرك.

وفي اليوم العاشر كانوا اثني عشر طفل مع سعيد في واحتهم الجديدة.

وكان في الحوض ثلاث سمكات، وبعض التمرات، وضبّ.

ورأى سعيد صغيراً منهم يسند رأسه إلى الطين ومن الجوع يغمض عينيه قبل الظهر.

ونظر إلى القصب الذي يخفي التجويف خلف النخلات.

حينها ذهب وحده.

كان الغزال مستلقياً، والعود المربوط بساقه لم يتحرك.

رفع رأسه حين رأى سعيد، ومدّ أنفه نحو يده، ثم أنزله.

جلس سعيد بجانبه، وأسند ظهره إلى الكثيب.

سعيد:

ـــ عارف يا صاحبي إنك تقريباً أول صاحب ليا؟

مضغ الغزال ببطء.

سعيد:

ـــ كل اللي قابلتهم في حياتي أخواتي، والبابا.

وماكانش فيهم صاحب. أخ بس.

وإخواتي كنا دايماً ناقر ونقير في بعض. واديك شفت وصلنا لإيه. بدل ما نحب بعض بقينا نحبس بعض. من النقر بالكلام للضرب والكتم.

ضحك ضحكة قصيرة.

سعيد:

ـــ أما إنت... إنت كنت صاحبي. بتسمعني. ومش بس مش بتناقر فيا، ده إنت حتى مبتردش. ولا بيطلعلك صوت.

وكنت بحكيلك براحتي، لأن مفيش بينا حسابات. لا دار ولا بابا. مش زي إخواتي.

نظر إلى الساق المربوطة.

سعيد:

ـــ تعرف يا صديقي إنت الوحيد اللي مقولتلكش مفيش فايدة وقررت أعالجك.

لم يتحرك الغزال.

سعيد:

ـــ مش عشان كنت متفائل أني أعرف أساعدك. لأ.

سكت قليلا

سعيد:

ـــ تصدق مش عارف ليه. وخايف أقولك حاجة تقول عليا واطي.

أنا بصراحة مقلتش مفيش فايدة وعالجتك عشان أنا أصلاً ماكنتش أعرفك ويعني لو منجحتش معاك مش قصة يعني.

سكت. ثم:

سعيد:

ـــ سامحني يعني يا صاحبي. لو كنت فشلت في علاجك ومت كنت هاصطاد صاحب غيرك.

متزعلش مني. ده تفكيري وقتها. كان أول يوم أشوفك، وممكن أكون بعد كده حبيتك. بس ماركزتش بصراحة.

مسح وجهه بكفه.

سعيد:

ـــ وعايز أقولك حاجة كمان، بس متزعلش.

بما إنك خلاص قلت عليا واطي، فمش فارقة. إنت عندك حق. أنا واطي. هاضحي بيك عشان إخواتي.

إنت كده كده كنت فريسة من أول يوم. المفروض تقول شكراً إني خدتك صاحب. وعشت كام يوم زيادة. ودلوقتي هترجع فريسة تاني. سامحني.

أنزل الغزال رأسه على الرمل.

سعيد:

ـــ صحيح. أنا لسه ما سمّيتكش. فكر معايا أسميك إيه عشان، حتى لو حبيت أحكي عنك فبعد ما تضحي بنفسك عشان أخواتي

أقولك هاسميك على اسم أكتر أخ بحبه. مظبوط.

نظر إلى الساق.

سعيد:

ـــ لأ. إنت مكسور. هاسميك مكسور.

سكت لحظة طويلة.

سعيد:

ـــ سامحني يا مكسور. هتوحشوني. وأوعدك يا صاحبي إني مش هاقرب للحمك. هتفضل صاحبي. وهافتكرك دايماً.

ثم رفع الحجر.

وعند الغروب كانت النار مشتعلة، ورائحة اللحم تصعد من الحجارة الساخنة.

ووضع سعيد يده على رأس مظبوط، وقال للأولاد:

ـــ خدوا عشاكم.

ثم ابتعد، وجلس عند الحوض وحده.

وتعلّم الأولاد في الأيام الأخيرة أن يعملوا كل شيء.

جمعوا القصب الجاف، ورتبوا الحجارة، وحفروا حفرة للنار.

كان أحدهم يقلب اللحم بعود، وآخر يملأ الجرة، وثالث يحرس.

الطفل الأول:

ـــ فاكرين أول يوم البابا مشي، ومعرفناش نولّع البوتجاز؟ وقفنا مع فاتن ننفخ لحد ما وشنا كله سواد.

الطفل الثاني:

ـــ ودلوقتي إحنا اتعلمنا لوحدنا. نصطاد ونولّع نار ونطبخ ونغرف ونفرح كمان!

الطفل الثالث:

ـــ وهتفضل تتكلم لحد ما الأكل يبوظ مننا؟ يلا ركزوا.

ضحكوا. وكان الضحك أول ضحك جماعي يسمعه الحوض منذ جاءوا.

وحين نضج الطعام نادوا:

سالم:

ـــ سعيد! الأكل!

جاء سعيد. وقف عند الحلقة، ونظر إلى اللحم على الحجارة، ثم إلى الأولاد.

سعيد:

ـــ أنا مش جعان.

حسن:

ـــ بقالك يومين مكلتش مش جعان أزاي يعني.

سالم:

ـــ ده الأكل اللي إنت جبته بنفسك!

سعيد (بغضب):

ـــ قلت مش جعان. كلوا إنتوا.

مدّ ياسين قطعة صغيرة.

ياسين:

ـــ دوق بس.

سعيد:

ـــ لأ لأ لأ أبعد اللحمة دي عني.

قالها بحدة لم يتوقعها أحد، حتى هو.

ووقفت ورد من مكانها، واللعبة في يدها. نظرت إلى سعيد، تكلمت للمرة الثانية نظرت إلى الأولاد، وقالت:

ورد:

ـــ أنا أقولكم ليه سعيد مش هياكل ولسه سعيد بيزعق.

ساد الصمت.

ورد:

ـــ أنا كنت باجي أشرب. وسعيد ما كانش بيشوفني. وكنت بشوفه وهو بيتكلم معاه الغزال اللي بتكلوه. وبيلعب معاه. وبيعالجه. كأنه أخوه.

ثم قالت بصوت أصغر:

ورد:

ـــ هو في أخ ياكل أخوه؟

حسن:

ـــ آه... يعني ده الغزال اللي كان...

سعيد:

ـــ لأ.

قطعت الكلمة الحلقة كالسكين.

لم يتحرك أحد. ثم تحرك مظبوط.

اقترب من سعيد خطوتين، ووقف أمامه، واللعبة الزرقاء المربوطة بخيط أسود في قبضته.

مظبوط:

ـــ ليه يا سعيد؟

سعيد:

ـــ ليه إيه؟

مظبوط:

ـــ الغزال لما اتكسر، قلت هاعالجك وما تفقدش الأمل.

سعيد:

ـــ مظبوط...

مظبوط:

ـــ وإحنا... لما الدار اتكسرت، قلت مفيش فايدة.

ارتفعت يد سعيد ثم نزلت. كان الأولاد جميعاً ينظرون إلى الأرض.

مظبوط:

ـــ وليه عالجت الغزال، وما روحتش لأحلام؟ فاتن قالتلك أحلام تعبانة، وإنت قلت أنا مش دكتور.

سعيد:

ـــ أنا...

مظبوط:

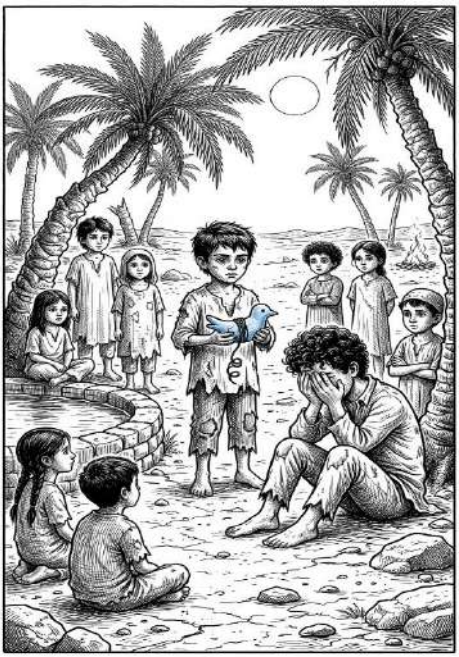
ـــ الغزال عاش كام يوم زيادة بسبب. وأحلام ماتت من غير ما حد يروحلها. وإحنا اللي كنا واقفين قدامك سبتنا ومشيت.

لم يكن الصبي يصرخ. كان صوته أخفض من كل ما قيل في ذلك اليوم.

وفتح سعيد فمه ليجيب، وانتظر الجملة التي كانت تأتيه دائماً.

لم تأتِ.

انحنى نصف انحناءة، ثم جلس على الأرض بين الأولاد، ووضع يديه على وجهه. وسمعوا له صوتاً لم يسمعوه منه من قبل.



سعيد (وهو يبكي):

ـــ متحاسبونيش. كلنا غلطنا. أنا آسف. وعبدون آسف. وبكر آسف. ومنى آسفة. وفاتن آسفة. وإنتوا كمان سامحوني. وسامحوهم. إحنا كلنا ماكناش عارفين إيه الصح وإيه الغلط.

ساد صمت طويل.

ثم قالت ورد ببراءة، دون أن ترفع صوتها:

ورد:

ـــ فاتن مش آسفة. فاتن حلوة.

رفع سعيد رأسه.

سعيد:

ـــ فاتن كانت أحلى واحدة فينا.

وتوقف. ثم، وهو ينظر إلى الأفق الذي لا يرى فيه شيئاً:

سعيد:

ـــ بس هي فين؟ هي فين؟

لم يجبه أحد.

جلس مظبوط بجانبه. ومدّ ياسين بهدوء قطعة اللحم الصغيرة مرة ثانية. نظر إليها سعيد، ثم هزّ رأسه وقال:

مظبوط:

— يا سعيد أسف إيه انا مش زعلان منك أزعل ازاي وهو صاحبك اللي عالجته أكلته لينا بإدك كويس أننا مكناش مكانه.

لم يضحك أحد أدركت مظبوط أنه كانت اسوء نكته مد يده للحكم

وأكل الباقون في صمت. وبقيت القطعة في يد سعيد حتى الفجر، لم يأكلها ولم يرمها.

وفي الصباح كان أول من وقف.

سعيد:

— يا ولاد كنتوا كام واحد أما خرجتوا من الدار؟

مظبوط (دون تردد):

ـــ أكتر من تلاتين. وإحنا هنا اتناشر.

سعيد:

ـــ يبقى لازم ندور على أخواتنا ونلاقيهم.

حسن:

ـــ إزاي؟ الصحرا كبيرة.

نظر سعيد إلى الخط الطويل من المواسير، وإلى الأولاد الذين نظروا إليه.

سعيد:

ـــ فرقة تحمي الميّه. فرقة تطبخ. وفرق تدور. كل فرقة تمشي مسافة يوم وترجع. ونتجمع هنا بعد ثلاث أيام.

مين يعرف يمشي من غير ما يتوه وها يصطاد أكله يعرف؟

رفع سالم يده، ثم حسن، ثم ياسين.

سعيد:

— سالم وحسن شرق. ياسين وإياد غرب. وأنا هاطلع شمال مع مظبوط، لأنه بيعدّ.

مظبوط:

— وورد؟

سعيد:

— ورد تقعد مع اللي بيطبخوا أكل كتير عشان أخواتنا اللي هايرجعوا معانا هايبقوا جعانين.

وأي حد يلاقي حد، أول حاجة يديله ميّه. وبعدين يقوله: مفيش حد هنا بابا.

وعاد أيتام الأمل بعد ثلاثة أيام.



عادوا مغبرين، جائعين، وكل واحد منهم يمسك بيد طفل صغير وحين عدّ مظبوط الأولاد أعاد العدّ مرتين، ثم قال: ـــ عشرين.

وبنى الأولاد أربع عشش جديدة. أصبحت سبعاً: واحدة للبنات، وواحدة للصغار، وواحدة للأولاد الذين يشخرون في نومهم.

وفي المساء، حول النار، قال حسن:

حسن:

ـــماشفناش حد بيدور علينا أمال فين زيدان وعبدون وباقي أخواتنا مفيش حد خالص لا على رجله ولا حتى بعربية.

مظبوط:

ـــ ولا حتى صوت.

سكت سعيد. وأخذ ينظر إلى النار.

ثم قال طفل جديد، من الذين جاءوا آخر النهار، وفي يده قطعة طين يشكلها:

الطفل الجديد:

ـــ هو إحنا بنبني ليه؟

نظر إليه الأولاد.

الطفل الجديد:

ـــ طالما بقينا بنعرف نعمل ده كله ومن غير ما يبقي في بابا بنتعاون

ونساعد بعض من غير خناقات ولا بدروم ولا أصدقاء عبدون، منرجع الدار.

نعيش على الصيد، ونسقي شجرة التوت، ونزرع حاجات تانية. ما إحنا معانا سعيد. ونعمل كل اللي بنعمله هنا في بيتنا هناك.

ساد صمت لحظة.

ثم صاح أحدهم. ثم آخر. ثم ضحك الأولاد جميعاً، وقفزوا، وتعانقوا، وصرخوا: الدار! الدار!

وكان الأطفال يفرحون، كما يفرح الأطفال حين يسمعون أنهم عائدون إلى بيتهم.

إلا سعيد. سرى في جسده قشعريرة، من رقبته إلى ظهره. أمسك بالحائط الطيني خلفه، فتفتت الطين في قبضته.

مظبوط (وهو يتأمل وجهه):

— إنت مش فرحان يا سعيد؟

نظر سعيد إلى خط المواسير الذي يختفي في الظلام.

سعيد:

فرحان بس خايف.

الفصل الرابع
من غير شهود

سمعت زهرة العربية قبل أن تراها.

كأنت جالسة عند الباب الحديدي الذي لم يعد يئنّ، تفرز الحصى في كفها، حين ارتفع في آخر الطريق الترابي عمود من الغبار، وتبعه صوت محرك متعب يسعل كلما صعد تلّاً.

وقفت. ثم جلست. ثم وقفت من جديد وجرت إلى غرفة البابا.

زهرة:

ـــ بابا! فيه عربية جاية عالدار من بعيد!

لم يرفع إبراهيم عينيه من المصحف. أنهى السطر، وقبّل الغلاف، ووضعه على المكتب فوق الأجندة السوداء، كمن يغطي شيئاً.

بابا إبراهيم:

ـــ ده ميعادها. الحمد لله.

زهرة:

ـــ إنت كنت مستنيها؟

بابا إبراهيم:

ـــ اللي ماشي في سكة ربنا ما بيستناش يا زهرة. هو بيوصل.

كأنت عربية نصف نقل زرقاء، أكل الصدأ حواف بابها، وبقي من الكلام المكتوب عليه بحروف باهتة: «دار السراج المنير».

توقفت أمام الباب المفتوح، وسكت محركها بعد سهلة أخيرة.

نزل منها رجل نحيل في جلابية رمادية، يلوك عود سواك، وعلى كتفه منشفة صفراء صغيرة.

ألقى نظرة على الدار الخاوية، ثم على إبراهيم، وقال بابتسامة جانبية

السواق:

ـــ السلام عليكم يا مولانا. لقيناها بالعافية. الطريق ده مش طريق.

بابا إبراهيم:

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا سيدي.

السواق:

ـــ الشيخ حسن بيسلّم عليك كتير. وبيقول: ربنا يبارك.

بابا إبراهيم:

ـــ الله يسلّمه. الحمل كله؟

السواق:

ـــ اتنين وعشرين راس، زي ما اتفقتوا.

زهرة:

ـــ هو العيال بيتعدّوا بالراس؟

ضحك السواق، وأخرج عود السواك من فمه.

السواق:

ـــ بنت ذكية، ما شاء الله. دي بتاعتكم؟

بابا إبراهيم (دون أن ينظر إليها):

ـــ دي زهرة. افتح ونزل العيال.

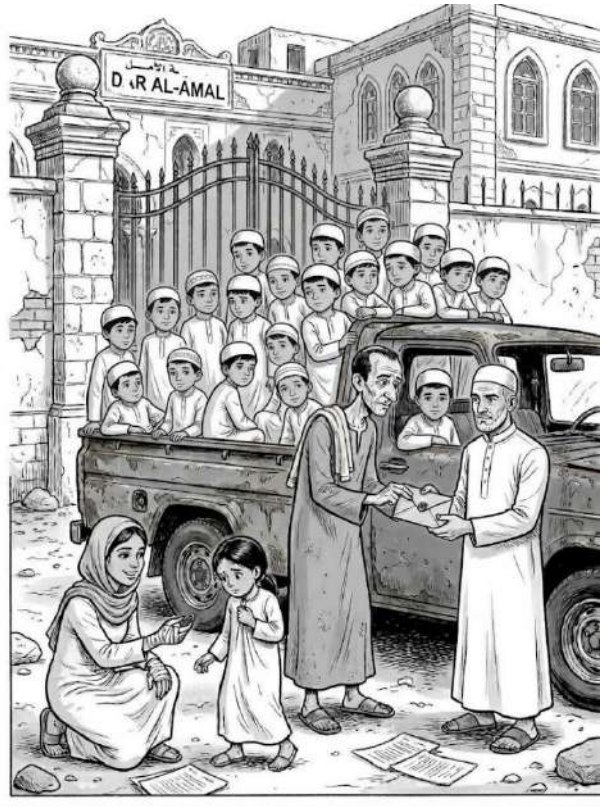
فك السواق الحبل عن الغطاء المشمّع في صندوق العربية، ورفعه.

كانوا مكدّسين تحته صفاً فوق صف، ركبة في ظهر وكتف في وجه، كأنهم صناديق حُمّلت بقدر قليل من الحرص.

أولاد في جلاليب بيضاء قصيرة وطواقي بيضاء، وجوههم مغبرّة، وعيونهم مفتوحة كلها على سعة واحدة. لا بكاء، ولا همس.

وبين أقدامهم كيس أرز ثقيل، وثلاثة جراكن ماء.

أدخل السواق يده في جيبه وأخرج ظرفاً بنياً مطوياً على ورقة.



السواق:

ـــ الكفالات في الظرف، والكشف جواه. والشيخ حسن بيقولك: اللي يكفل يتيم بيسأل عنه، فما تنساش الكشف آخر الشهر.

تناول إبراهيم الظرف ولم يفتحه. وزنه في كفه كما يوزن رغيف.

السواق (بصوت أخفض):

ـــ وبيقولوا يا مولانا إنك لما مشيت من عنده خدت حاجة معاك.

بابا إبراهيم:

ـــ الناس بتقول كتير. والله يعلم حقي وحقه.

السواق:

ـــ ونعم بالله. بس هو برضه مش مقتنع أنك لقيت الدار دي صدفة في الصحرا، بيقول هي الدار دي شنطة تقع من حد دي دار ومباني وعيال وفلوس وأكل وهيصة إزاي تتلاقي بالصدفة.

بابا إبراهيم:

ـــ كنت ماشي في سكة ربنا، والدار طلعت قدامي. عيال غلابة مدير الدار بتاعهم سرقهم وهرب وربنا حطني على سكتهم الحقهم ده كل اللي حصل.

ومن صندوق العربية تحرك أول الأولاد.

كان صبياً طويلاً نحيلاً في الخامسة عشرة، نزل إلى الأرض بقدمه اليمنى أولاً، ثم رفع ذراعيه وأنزل من بعده الأولاد واحداً واحداً دون أن ينظر إلى أحد منهم، كمن ينزل شيئاً قابلاً للكسر.

ونزل الباقون بالترتيب نفسه. كل واحد بقدمه اليمنى.

زهرة:

— ودول كلهم عارفين موضوع الرجل اليمين!

وقفوا صفين متوازيين، الأصغر في المقدمة، رؤوسهم مطأطأة وأيديهم متشابكة على بطونهم.

وقال الصبي الطويل كلمتين، فردّد الباقون معه، كأنه صوت واحد خرج من اثنين وعشرين صدراً:

الأولاد:

ـــ السلام عليكم يا بابا.

بابا إبراهيم:

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. نورتوا بيتكم الجديد دار الأمل.

وقفت زهرة أمامهم، وأخذت تعدّ على أصابعها:

ـــ واحد، اتنين، تلاتة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، تمانية، تسعة، عشرة.

ثم توقفت.

زهرة:

ـــ بعد عشرة بتلخبط.

الصبي الطويل:

ـــ اثنان وعشرون يا أختي.

زهرة:

ـــ إنت بتتكلم كده دايماً؟

الصبي الطويل:

ـــ كيف؟

زهرة:

ـــ كده. زي الراديو يعني مثلا مش بتقول إزاي بتقول كيف وحاجات تانية.

ولم يرد.

زهرة (لإبراهيم):

ـــ هما مين دول؟

بابا إبراهيم:

ـــ إخواتك يا زهرة.

زهرة:

ـــ لأ. إخواتي مش بيقفوا كده. إخواتي كانوا بيجروا.

بابا إبراهيم:

ـــ دول إخوات جداد يا زهرة. هتتعودي.

جاءت فاتن من المطبخ تمسح يديها بطرف الشال، وتوقفت في منتصف الجنينة.

رأتهم صفاً صغيراً، فنسيت كل شيء. مشت إليهم بخطوات تسرع كلما اقتربت.

ركعت أمام أصغرهم، صبي في السادسة يجرّ جلبابه الأرض، وأخذت وجهه بين كفيها.

فاتن:

ـــ إيه اسمك يا حبيبي؟ إنت جعان؟ تعالى...

لم يتحرك الصبي. نظر إلى كفيها على خديه، ثم رفع عينيه إلى الصبي الطويل.

الصبي الطويل:

ـــ ما ينفعش يا أختي.

فاتن:

ـــ إيه؟

الصبي الطويل:

ـــ ما بنلمسش الستات اللي مش محارمنا. ده حرام. الشيخ حسن علّمنا دينا كدة.

تراجع الصغير خطوة، واختفى بين ظهور الصف.

وبقي كفّا فاتن معلّقتين في الهواء حيث كان وجهه.

بابا إبراهيم (من خلفها، بهدوء):

ـــ اتربّوا كده يا فاتن. ده مش عيب منهم، ده تأديب عشان يتعودوا لما يكبروا عليه من دلوقتي. وإنتي كمان تتعلمي وهتتعودي.

أنزلت فاتن يديها. ثم وضعتهما في جيب ثوبها، وأخرجت تمرة، آخر ما بقي من الثلاث، وانحنت ووضعتها على الأرض أمام قدمي الصغير، وتراجعت.

نظر الصغير إلى الصبي الطويل. وانحنى الصغير والتقط التمرة بأطراف أصابعه.

الصغير (بصوت محفوظ):

ـــ جزاكِ الله خيراً يا أختي.

ابتسمت فاتن، وبقيت واقفة بعد أن أنتهى كل شيء.

ومن مدخل الممر راقبهم زيدان.

لم يكن ينظر إلى وجوههم. كان يعدّ ما يعدّه رجل يريد أن يمسك بشيء: كم رأساً تحتاج إلى أمر، وكم يداً تحتاج إلى عمل، وكم فماً يحتاج إلى أكل.

تقدم بابتسامة المسؤول، ووقف أمام الصف.

زيدان:

ـــ أهلاً يا شباب. أنا زيدان، الأخ الكبير هنا. اللي معاه حاجة يشيلها ويجي معايا أوريه المطبخ والحمامات.

لم يتحرك أحد. نظر الأولاد جميعاً إلى الصبي الطويل.

الصبي الطويل:

ـــ إحنا ما بنسمعش إلا كلام بابا إبراهيم يا أخي.

زيدان:

ـــ أنا نايب بابا إبراهيم.

الصبي الطويل:

ـــ لما بابا يقولنا، نسمع.

وقف زيدان ثانيتين، ثم التفت إلى إبراهيم.

بابا إبراهيم:

ـــ عبد الرحمن، زيدان أخوكم الكبير والنائب بتاعي.

عبد الرحمن (لزيدان):

ـــ أمرك يا أخي.

قالها لزيدان، لكن عينيه ظلتا على إبراهيم.

وفي العصر وجد زيدان إبراهيم عند الجدار الخلفي لعنبر المرضى، يمشي ببطء بمحاذاة الحائط ويعدّ خطواته بصوت لا يكاد يُسمع. وكل عشر خطوات ينحني ويضع حجراً صغيراً على الأرض، كما يفعل من يقسّم أرضاً.

زيدان:

ـــ بتعمل إيه يا بابا؟

بابا إبراهيم:

ـــ بحسب النعمة يا زيدان.

زيدان:

ـــ هو الأكل اللي فاضل يكفي كام يوم؟ والميّه؟ تلات جراكن دول هيخلصوا الليلة.

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا يدبّر. والسواق راجع بحمولة تانية بإذن الله.

زيدان:

ـــ أنا مش فاهم حاجة يا بابا.

حضرتك قلت إن إخواتنا اللي في الصحرا لو رجعوا دلوقتي هيموتوا من الجوع، عشان الأكل مش هيكفي. والاتنين وعشرين دول إيه؟

لم يتوقف إبراهيم عن العدّ. وصل إلى الزاوية، وانحنى، ووضع حجره الأخير.

بابا إبراهيم:

ـــ دول جايبين رزقهم معاهم. كل واحد منهم له كفيل، والكفيل بيبعت رزقه. واللي في الصحرا ملهمش كفيل.

زيدان:

ـــ يعني اللي له كفيل ياكل، واللي ملوش يموت؟

بابا إبراهيم:

ـــ أنا قلت كده؟ أنا بقول إن الرزق بيمشي ورا أصحابه.

زيدان:

ـــ وإخواتنا اللي في الصحرا رزقهم راح فين؟

نظر إليه إبراهيم نظرة طويلة، ثم ابتسم ووضع يده على كتفه.

بابا إبراهيم:

ـــ إنت بتسأل أسئلة تنفع نايب. بس ما تسألش كتير قدام الصغار.

وعاد إلى الحائط، وعدّ الخطوة التالية.

وفي المساء رأت زهرة إبراهيم يفعل شيئاً لم تفهمه.

ملأ كوزاً من الصفيح من الزير، وعلّق في حزامه مفتاحاً كبيراً بسلسلة، ومشى نحو عنبر المرضى بخطوات واسعة. فتبعته زهرة، وتخفّت وراء آخر نخلة بلاستيك.

توقف على بعد خمس خطوات من الباب المقفول. رفع كمّه الواسع على أنفه وفمه، وتمتم بكلام خفيض.

ثم انحنى ووضع الكوز على الأرض قرب العتبة، ولم يلمس القفل.

بقي دقيقة. من خلف الباب جاءت سعلة، ثم سعلة، ثم سعلة.

وانصرف.

وفي الفجر ذهبت زهرة وحدها. كان الكوز على العتبة كما هو، مليئاً حتى حافته، وعلى سطح مائه ذبابة ميتة ونملتان.

جلست أمامه طويلاً. ثم لم تلمسه.

وعلى بعد ثلاثة أيام من الدار، كأنت العشش تتنفس تحت قمر ناقص، وكان الأولاد مع سعيد ما زالوا يتكلمون عن الدار في نومهم.

حول النار الصغيرة قال حسن:

حسن:

ـــ أنا أول واحد هيدخل. هدخل من الباب الكبير وأزعق: أنا رجعت يا دار!

سعيد:

ـــ محدش هيدخل.

سكتوا.

سعيد:

ـــ قبل ما نرجع الدار، لازم نعرف الوضع هناك إيه دلوقتي. مين فيها ومين مش فيها، وإيه اللي اتغير، ومين ماسك الباب.

سالم:

ـــ وهنعرف إزاي؟

مرّ سعيد بعينيه على الوجوه واحداً واحداً، حتى وصل إلى الصغير النائم جنب النار، واللعبة الزرقاء المربوطة بخيط أسود في قبضته.

سعيد:

ـــ مظبوط.

فتح الصغير عيناً واحدة.

مظبوط:

ـــ أنا سامع.

سعيد:

ـــ إنت أصغرنا. ومحدش بيخاف من واحد زيك، ومحدش يفتكر إنه جاسوس. هنوصلك لأقرب مكان، وتدخل الدار لوحدك، تشوف الدنيا وتخرج تبلغنا. ونشوف هنعمل إيه.

حسن:

ـــ وإن حد مسكه؟

سعيد (لمظبوط):

ـــ لو حد غير زهرة شافك، تهرب. فاهم؟ ومحدش يعرف إنك جيت. زهرة مش بتكدب، كلّمها هي.

مظبوط:

ـــ فاهم. هعدّ كل حاجة.

سعيد:

ـــ واسأل عن فاتن الأول.

ثم جلس عند الحوض وحده. ظل طوال الليل يعدّ القطرات، ولم تكن القطرة التالية تأتي أسرع.

في الفجر التالي كان إبراهيم واقفاً عند نافذة غرفة البابا، ومسبحته تدور في يده أسرع من المعتاد.

في الجنينة كان الأولاد الجدد يصلّون الفجر صفاً واحداً في ضوء رمادي.

وبين الصفوف مشت فاتن بوعاء ماء، تسقي الصغار الذين لا يستطيعون الأنتظار، وتتراجع خطوتين بعد كل واحد، كأنها تعلمت الدرس في ليلة.

كان ثوبها نظيفاً، والشال الداكن مشدوداً على شعرها كما أمر.

وكلما انحنت انزلق طرفه، فتعيده بظهر يدها دون أن تنظر.

تتبّع إبراهيم الحركة مرة، ومرتين، ثم أوقف المسبحة.

بابا إبراهيم (بصوت خافت):

ـــ أستغفر الله.

ثم كرّرها ثلاثاً. ولم يرفع عينيه عن النافذة.

زهرة (من خلفه):

ـــ بابا، إنت بتبص من الشباك كتير.

بابا إبراهيم:

ـــ بتفرج على الأولاد يا زهرة.

زهرة:

ـــ إنت بتتفرج على فاتن.

أغلق إبراهيم ضلفة النافذة وأدار ظهره لها.

بابا إبراهيم:

ـــ روحي نادي عبد الرحمن. قوليله بابا عايزك. وبعدين اطلعي العبي في الجنينة. وما تدخليش هنا غير لما أناديكي.

زهرة:

ـــ أنا مش عايزة ألعب.

بابا إبراهيم:

ـــ عيب يا زهرة اسمعي الكلام.

خرجت، وهي تلتفت. ولم تغلق الباب تماماً.

وبعد قليل جاءت فاتن، الذي إبراهيم أرسل في طلبها.

بابا إبراهيم:

ـــ اقعدي.

جلست على حافة الأريكة، ويداها في حجرها. لم ينظر إليها. وضع المصحف على المكتب، ثم أخذه، ثم وضعه.

بابا إبراهيم:

ـــ إنتي زعلانة مني يا فاتن؟

فاتن:

ـــ لأ.

بابا إبراهيم:

ـــ عايز أكلمك في حاجة، وعايزك تسمعيني للآخر. واللي هقوله ده من خوفي عليكم.

فاتن:

ـــ حاضر.

بابا إبراهيم:

ـــ الدار دلوقتي بقى فيها أولاد كتير. وفي ناس تانية جاية، إن شاء الله.

العيال دي النهاردة صغيرة، لكن بكرة هتكبر. زي ما زيدان كبر.

فاتن:

ـــ زيدان أخويا.

بابا إبراهيم:

ـــ طبعاً. وهو راجل كويس. بس اللي هيكبروا مش كلهم زيدان. هيكبروا، ويفهموا، ويشوفوكي.

وبنت زيك قاعدة وسط رجالة وهي مش متجوزة، يبقى وجودها بينهم مطمع. وخطر عليهم قبل ما يبقى عليكي. وإحنا لازم نمنع الخطر ده قبل ما يحصل.

رفعت فاتن رأسها، ثم أنزلته.

فاتن:

ـــ يعني إيه؟

بابا إبراهيم:

ـــ يعني أنتي محتاجة جواز يا بنتي.

فاتن (بعد لحظة، بصوت منخفض):

ـــ جواز مين ومن مين أصلاً؟ مفيش حد هنا كبير غير زيدان. وزيدان ده أخويا.

بابا إبراهيم:

ـــ لأ. في حد تاني.

نظرت إلى الباب. ثم إلى الأرض. ثم عدّت على أصابعها كما تعدّ زهرة، ببطء، كمن يستعرض وجوهاً. وحين وصلت إلى آخر وجه قالت وهي تتجنب عينيه:

فاتن:

ـــ بكر؟

بابا إبراهيم:

ـــ بكر!!! وأنا أجوّزك لمجرم؟

وسكت.

بابا إبراهيم:

ـــ لأ. مينفعش.

لم يقل اسماً آخر. نظر إليها فقط، ثم إلى المصحف، ثم عاد ونظر إليها.

وأمسكت فاتن حافة الأريكة بيديها الاثنتين.

فاتن (بصوت بالكاد يُسمع):

— يا بابا...

وقبل أن تكمل رفع إبراهيم كفّه ووضعها على فمها.

لم يكن في الحركة عنف. كأنت سريعة وجافة وثابتة، كيد من يريد أن يسكت طفلاً قبل أن يوقظ البيت. لكنها لم تُرفع كما ترفع يد الأب. بقيت.

مرّت ثانية، ثم اثنتان، ثم ثلاث. ثم رفعها.

بابا إبراهيم:

— ما تقوليها تاني. اسمي إبراهيم.

بقيت فاتن كما كأنت حين ضمّها في الممر: ذراعاها على جانبيها، وكتفاها مرفوعان، وأنفاسها محبوسة.

فاتن:

ـــ حضرتك إزاي أنا عندي سبعتاشر سنة.

قالتها بصوت مسطّح، كمن يسلّم شيئاً.

فاتن:

ـــ وحضرتك عدّيت الستين.

لم ينفعل إبراهيم. ابتسم ابتسامة رجل سمع سؤالاً حفظ جوابه منذ زمن.

بابا إبراهيم:

ـــ ربنا ما بيسألش عن السنين يا فاتن، بيسأل عن السنّة.

والرسول عليه الصلاة والسلام اتجوز أمنا عائشة وهي صغيرة، وهو أكبر منها بكتير.

وأنا ما بخترعش حاجة. أنتي متعرفيش ان سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام تزوج السيدة عائشة في سن السادسة وبنى بها في سن التاسعة.

فاتن:

ـــ يعني إيه بنى بها

بابا إبراهيم: لأ دي تعرفيها بعد الموافقة المهم رأيك دلوقتي

ثم أضاف بصوت أخفض:

ـــالبنت البكر إذنها سكوتها. ده كلام الرسول. لو مش موافقة، قولي لأ. ولو سكتّي، يبقى وافقتي.

فتحت فاتن فمها. ولم يخرج منه شيء.

ومن وراء الجدار جاءت سعلة واحدة، ضعيفة، بعيدة، من ناحية العنبر.

رفعت فاتن رأسها نحو الصوت كأن حبلاً شدّها.

فاتن:

ـــ العيانين...

بابا إبراهيم:

ـــ أنا بدخل لهم كل يوم يا فاتن. سقيتهم بإيدي، وقريت عليهم، وهديوا.

فاتن:

ـــ هديوا؟

بابا إبراهيم:

ـــ بإذن الله. وأنا مش هقدر أراعيهم ولا أراعيكم لو الدار فضلت من غير بيت ليا وزوجة جميلة زيك. أنا ما بجبرش حد.

إنتي حرة. بس لو قلتي لأ، يبقى مضطر أمشي وآخد الاتنين وعشرين معايا.

وإنتي وزيدان وزهرة هتفضلوا هنا وحدكم. أنتوا والباب الحديد اللي تحت ده...

وفي الجنينة ختم الأولاد صلاتهم بصوت واحد: «السلام عليكم ورحمة الله».

بابا إبراهيم:

ـــ ما شاء الله. السكوت علامة الرضا.

وفتح المصحف.

وفي فتحة الباب التي لم تُغلق، كأنت عين زهرة مفتوحة على آخرها.

رفع إبراهيم رأسه من المصحف، ونادى بصوت مرتفع:

ـــ تعالى يا زيزو!

ظهر زيدان في الباب وهو يمسح يديه في ملابسه. نظر إلى فاتن الجالسة، إلى وجهها الذي لا لون فيه، ثم إلى إبراهيم.

زيدان:

ـــ أيوه يا بابا؟

بابا إبراهيم:

ـــ تعالى اقعد. أنا عايز أطلب منك إيد فاتن.

ضحك زيدان.

زيدان:

ـــ إيد فاتن؟ لإيه؟ هتساعدك في حاجة يعني؟

ولم يضحك أحد.

توقف ضحك زيدان في منتصفه، كمن وضع قدمه على درجة غير موجودة.

زيدان:

ـــ بابا... إنت قصدك... يعني...

بابا إبراهيم:

ـــ قصدي اللي فهمته يا بطل.

نظر زيدان إلى فاتن. كأنت تنظر إلى نقطة في الأرض، ولم ترفع عينيها.

زيدان:

ـــ بس هي... ده... إنت... ده بابا...

بابا إبراهيم:

ـــ الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وأنا يا زيدان بصيت حواليا، وما لقيتش أجمل من أختك.

أنكمش وجه زيدان كمن شمّ شيئاً.

زيدان:

ـــ مش عارف أقول إيه.

بابا إبراهيم:

ـــ تقول: بارك الله لكما. وإنت يا زيدان هتبقى وكيلها في الجواز بإذن الله.

زيدان:

ـــ وكيلها؟

بابا إبراهيم:

ـــ أيوه. الرسول قال: «لا نكاح إلا بولي». وأمنا عائشة روت عنه: «أيّما امرأة نكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل».

وأنا ما أرضاش نكاحي يبقى باطل. إنت وليّها. وأخوها الكبير.

وأخذ يشرح بسرعة، كمن يعدّ على أصابعه أشياء لا تحتاج إلى شرح: الزوج، والزوجة، والولي، والمهر، والإيجاب، والقبول.

بابا إبراهيم:

ـــ والمهر؟ مهرها إني أكفلها وأكفل إخواتها كلهم. ده أحسن مهر. وبعدين الإيجاب والقبول. إنت تقول لي: زوّجتك أختي فاتن على كتاب الله وسنة رسوله، وأنا أقول: قبلت. وبعدين...

سكت لحظة.

بابا إبراهيم:

ـــ وبعدين الشهود. اتنين.

رفع زيدان رأسه، ولمعت عيناه لمعة وجد رشة تنقذه.

زيدان:

ـــ اتنين شهود! وإحنا مفيش غيرنا كبار. أنا الولي، وإنت العريس، وفاتن العروسة.

يعني نأجّلها لحد ما إخواتنا يرجعوا، ساعتها نلاقي شاهدين.

بابا إبراهيم:

ـــ وكفى بالله شهيداً.

وابتسم، وأشار بذقنه إلى صورة العجوز المعلقة على الحائط.

بابا إبراهيم:

ـــ وبعدين ده البابا أهو. شاهد معانا.

رفع زيدان عينيه إلى الصورة. تأملها كما لو لم يراها من قبل.

بابا إبراهيم:

ـــ اتفضل يا زيدان.

لم يتحرك زيدان.

بابا إبراهيم (بنبرة أبوية):

ـــ يا زيدان. إنت راجل. فكّر في الدار.

اللي بتعمله ده بيحمي أختك وإخواتك الصغيرين. ولو غلطت دلوقتي، تبقى غلطتك وغلطة الدار كلها.

ظل زيدان صامتاً، ثم نظر إلى فاتن كمن يطلب الإذن. ثم قال بصوت أجوف، كلمة كلمة، وهو يكرر وراء إبراهيم

زيدان:

ـــ زوّجتك... أختي... فاتن... على كتاب الله وسنة رسوله.

بابا إبراهيم:

ـــ قبلت زواجها.

ثم التفت إلى فاتن.

بابا إبراهيم:

ـــ وإنتي يا فاتن؟ قولي: قبلت.

نظرت فاتن إلى زيدان، ثم إلى صورة العجوز، ثم إلى السقف المتشقق الذي فتحت عينيها عليه أول يوم.

فاتن:

ـــ قبلت.

قالتها بصوت لا يشبه صوتها.

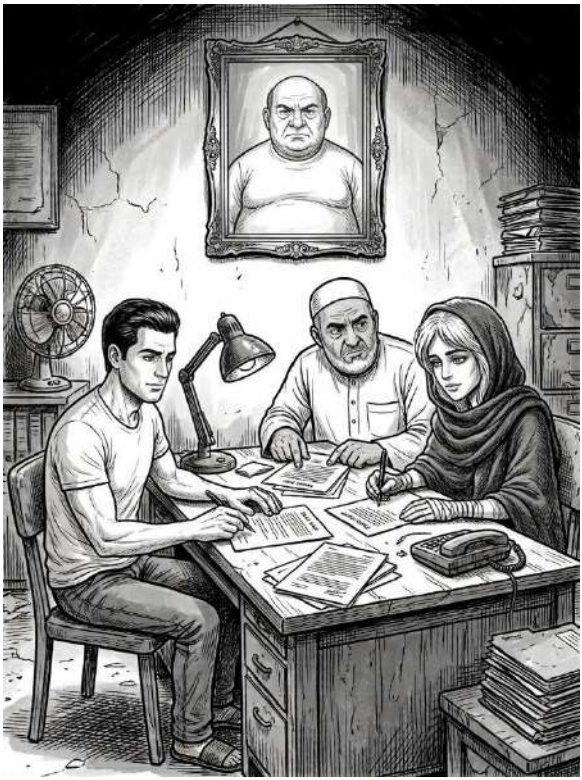
أخرج إبراهيم من درج المكتب الورقة التي جاء بها السواق: كشف أيتام دار السراج المنير، أسماء متراصة في عمود وأرقام بجوار كل اسم. قلبها على ظهرها الأبيض.

أمسك قلماً قصيراً وكتب بخط مستقيم جميل: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عقد زواج بين إبراهيم وفاتن، بولاية أخيها زيدان، على كتاب الله وسنة رسوله». وتوقف عند السطر الأخير.

بابا إبراهيم:

ـــ التاريخ إيه النهاردة؟

رفع رأسه، فرأى من الباب المفتوح الساعة النحاسية في الممر، وعقاربها على الرابعة وربع. وكتب: «حُرّر في الرابعة وربع».



ناوله القلم فوقّع زيدان. كأنت يده ترتعش فخرج الخط كخط طفل، وظهرت من خلف الورقة الرقيقة ظلال الأسماء والأرقام التي على وجهها الآخر.

ووقّعت فاتن. حفرت اسمها بالقلم حتى كاد يقطع الورقة.

ثم فتح الدرج مرة أخرى، وأخرج قطعة قماش سوداء مطوية، وورقة صغيرة رسم عليها بالقلم شكل وجه ملفوف لا يظهر منه إلا شقّان ضيقان.

بابا إبراهيم:

ـــ من القماشة دي تعملي نقاب زي اللي في الصورة دي يا فاتن. أنا مراتي محدش يلمح شكلها.

أخذت فاتن القماش. كان خفيفاً جداً، وأثقل من التراب الذي حملته ليالي.

بابا إبراهيم:

ـــ وبعد ما تخلّصيه نبدأ حياتنا بإذن الله. خدي وقتك. بس ما تتأخريش.

بابا إبراهيم (بصوت منخفض):

ـــ عشان أعرفك موضوع بنى بها ده

خرج زيدان من الغرفة دون أن يستأذن.

مرّ اليوم على زيدان دون أن يترك فيه أثراً.

في الصباح كان في المطبخ لا يعرف ماذا يفعل بيده، وفي الظهر وجد نفسه عند أعمدة الرخام، وفي العصر كان واقفاً في الممر أمام الساعة النحاسية ولا يتذكر لماذا.

كان يعرف شيئاً واحداً فقط من كل ما حدث: أنه يكره إبراهيم. يكرهه كرهاً بسيطاً وثقيلاً، كما لم يكره عبدون ولا بكر ولا أي أحد.

ومرّ بباب المطبخ فرأى فاتن جالسة على العتبة، والقماش الأسود في حجرها، تمرر الإبرة بين أصابع مجروحة. رفعت عينيها إليه. هزّت رأسها هزة صغيرة جداً: لا. فأومأ، وفهم أن عليه ألا يقول شيئاً.

وخلف المطبخ، في زاوية لا يمر بها أحد، أسند جبهته إلى الحائط.

زيدان (بصوت مكتوم):

ـــ مين ده؟ جه منين؟

ضرب الحائط بجبهته ضربة خفيفة. ثم أخرى أقوى.

زيدان:

ـــ كهل. ستين سنة. نازل علينا من الفراغ.

ضربة ثالثة.

زيدان:

ـــ وفاتن... هتنام جنب...

ولم يكمل الجملة، لأن جبهته كأنت قد التصقت بالحائط ولم تعد تضربه.

وعند الغروب نزل زيدان إلى البدروم.

كان قد قرر ألا ينزل، ثم وجد نفسه ينزل.

وقف عند الباب الحديدي القصير، وفتح النظارة الصغيرة، فجاء صوت بكر قبل أن يتكلم:

بكر:

ـــ الأكل لسه بدري يا حضرة النايب. ولا جاي تتفرج وتتسلي؟

زيدان:

ـــ بكر.

كان في صوته شيء لم يسمعه بكر منه من قبل، فسكت.

زيدان:

ـــ إنت بتكرهني ليه؟

بكر:

ـــ إيه؟

الفاشوش - الرواية الثانية – حكم اللي ميسحوش

زيدان:

ـــ إنت بتكرهني ليه؟ مشكلتك كأنت مع عبدون، مش معايا. أنا موافق. إنت تبقى البابا. بس في مشكلة. الحقنا يا بكر.

سكت بكر. ثم سمعه زيدان يقوم، وسمع خطواته تقترب من الباب.

بكر (بصوت جديد، أبطأ وأعرض):

ـــ قول كده تاني.

زيدان:

ـــ إنت تبقى البابا.

بكر:

ـــ وإنت؟

زيدان:

ـــ أنا في ضهرك.

أنتفخ صدر بكر خلف الباب؛ سمع زيدان ذلك في صوته.

بكر:

ـــ قول إيه المشكلة. نلحق إيه؟

زيدان:

ـــ العجوز اللي اسمه إبراهيم. اتجوز فاتن.

بكر:

ـــ إيه!!!؟

زيدان:

ـــ النهاردة الصبح. كتب ورقة، وأنا وقّعت.

وفجأة ضرب بكر الباب بكل ما فيه من قوة. ضربة، ثم ثانية، ثم ثالثة، حتى اهتزت النظارة في مكانها وانهالت من السقف ذرات تراب.

بكر:

ـــ وإنت وقّعت؟! وإنت وقّعت؟!

منى (من الجانب الآخر، بصوت يسبق ظهورها):

ـــ بكر! في إيه؟ بكر!

جرى زيدان إلى باب سجن النساء، وفتح النظارة، وللمرة الأولى منذ نزل إلى هذا البدروم نظر في عينيها دون أن يخفضهما.

زيدان:

ـــ الراجل العجوز اللي اسمه إبراهيم اتجوز فاتن. بالعافية.

وضعت منى يديها على رأسها، وانحنت، وألصقت جبهتها بالحائط الحجري، وبقيت هكذا. لم تصرخ. ظهرها فقط هو الذي ارتجف.

ثم جاء صوت من الخلف، حاداً كالإبرة:

نوران:

ـــ وإنت بقى خايف على أختك فاتن وعلى حرمة جسمها عشان هي أختك؟ ولا عشان اللي أنتهك جسمها مش إنت؟

تجمد زيدان.

زيدان:

ـــ يا نوران... إنتي فهمتيني وقتها غلط. ما كانش قصدي المسك.

أطلقت نوران صرخة.

نوران:

ـــ كداب!

رفعت منى جبهتها عن الحائط ببطء. وحين التفتت كان في وجهها شيء آخر.

ثم صاحت، ولم يكن الصوت صوتها:

منى:

ـــ كفاية! اسكتوا! كلكم!

ملأ الصدى البدروم من أوله إلى آخره، ثقيلاً وآمراً. وسكت بكر في منتصف ضربة. وسكتت نوران. وتراجع زيدان خطوة.

كان صوت منى يشبه صوت شخص آخر، شخص يعرفونه كلهم، ولم يكن أحد منهم يريد أن يسمعه ثانية.

وفي الصمت جاء صوت من فوق.

خطوات. خطوات هادئة على بلاط الممر، ثم وقفت عند رأس الدرج.

بابا إبراهيم (من فوق):

ـــ مين اللي بيزعق هناك؟ لا حول ولا قوة إلا بالله...

تجمد زيدان، وأنكمش بين السلم والجدار، في الظلام تحت السلم حيث تُكدّس البطاطين القديمة، وكتم أنفاسه.

لم ينزل إبراهيم. وقف في أعلى السلم بضع لحظات لا يتحرك. ثم قال بصوت خفيض، كمن يحدّث نفسه:

بابا إبراهيم:

ـــ الحمد لله.

وابتعدت الخطوات.

خرج زيدان من الظلام، وانحنى عند النظارة، وقال همساً:

زيدان:

ـــ بكرة هنزل لكم. هنشوف هنتصرف إزاي.

منى (بصوتها العادي، المتعب):

ـــ هي كويسة؟

زيدان:

ـــ معرفش.

وصعد.

وفي منتصف الليل، حين نام الأولاد الجدد صفاً واحداً تحت السماء، جلست فاتن في المطبخ إلى ضوء مصباح صغير، والقماش الأسود في حجرها.

كان قد صار قماشاً بشقّين صغيرين لا يكادان يتسعان لعينين، مخيطاً بغرز دقيقة. رفعته وتأملته. ثم أخذت الإبرة ودسّتها بين غرزتين، وسحبت الخيط.

انفكّت الغرزة. ثم الثانية.

زهرة (من العتمة عند الباب):

ـــ إنتي بتفكّي.

لم تنتفض فاتن. ظلت يداها تعملان.

فاتن:

ـــ المفروض إنتي نايمة.

زهرة:

ـــ المفروض إنتي بتخيّطي.

نظرت فاتن إلى الطفلة، ثم إلى القماش.

فاتن:

ـــ لسه ما خلصتش.

زهرة:

ـــ إنتي خلصتيه. أنا شفتك.

فاتن:

ـــ لسه.

وجلست زهرة أمامها على الأرض، والتقطت طرف الخيط المفكوك، وأخذت تلفّه حول إصبعها.

وفي الصباح كأنت زهرة جالسة عند الباب الحديدي تعدّ الحصى، حين خرج من خلف حجر كبير رأس صغير أسود الشعر، وفي يده لعبة زرقاء مربوطة بخيط أسود.

زهرة (بصوت مكتوم):

ـــ مظبوط!

جرت إليه وضمّته حتى كاد يختنق.

مظبوط:

ـــ حاسبي هتكسريني. سعيد مش عايز حد يعرف إني جيت.

زهرة:

ـــ سعيد معاك؟

مظبوط:

ـــ سعيد وإخواتنا كلهم. في مكان فيه ميّه وناس كتير. فين فاتن؟

زهرة:

ـــ اتجوزت.

مظبوط:

ـــ اتجوزت إيه؟ يعني إيه اتجوزت؟

زهرة:

ـــ يعني بقت ست بابا إبراهيم. هو كتب ورقة، وزيدان قال كلام، والبابا اللي في الصورة كان شاهد. أنا سمعت من ورا الباب.

مظبوط:

ـــ طيب ناديها.

زهرة:

ـــ هي الواقفة هناك بعيد دي.

مظبوط:

ـــ فين؟

زهرة:

ـــ هي اللي لابسة الأسود ده. لبس بابا قال نلبسه.

عند الأعمدة الرخامية كأنت واقفة بلا حركة، في ثوب أسود طويل من الرقبة إلى الأرض، والشال الداكن على رأسها.

لم يتعرف عليها مظبوط من وجهها، فالوجه لم يكن يبين من هذا البعد. عرفها من طريقة وقوفها.

تقدم خطوة، فأمسكته زهرة من قميصه.

زهرة:

ـــ لأ. لو ندهت هيسمعك بابا.

مظبوط:

ـــ هي مش بتتحرك.

زهرة:

ـــ بقت تقعد كتير.

مظبوط:

ـــ هو البابا رجع؟

زهرة:

ـــ لأ. بابا مش البابا. بابا إبراهيم.

مظبوط:

ـــ طيب فين عبدون وزيدان؟

زهرة:

ـــ عبدون مشي. وزيدان جوه قاعد على السلم.

مظبوط:

ـــ والعيانين؟

زهرة:

ـــ بابا إبراهيم بيدخل لهم كل يوم. هو بيقول.

مظبوط:

ـــ وإنتي؟

زهرة:

ـــ أنا شفت الكوز.

مظبوط:

ـــ كوز إيه؟

زهرة:

ـــ اللي بيحطه على باب العنبر. لسه مليان. ومن إمبارح بالليل محدش كح.

مظبوط:

ـــ يعني خفّوا؟

زهرة:

ـــ اللي بيخف بيجوع. وهما ما طلبوش أكل.

سكت مظبوط. ثم أشار برأسه إلى الجنينة، حيث كان الأولاد الجدد يخرجون من الغرف في صفين.

مظبوط:

ـــ وده مين؟ مين العيال الكتير دي؟ أنا معرفهمش.

زهرة:

ـــ إخواتي الجداد. بيصحوا ويصلوا ويناموا. ومحدش بيلعب.

مظبوط:

ـــ هستخبى هنا. نادي زيدان.

جرت زهرة إلى الداخل، وعادت بعد دقيقة تسحب زيدان من يده.

رآه زيدان فتوقف.

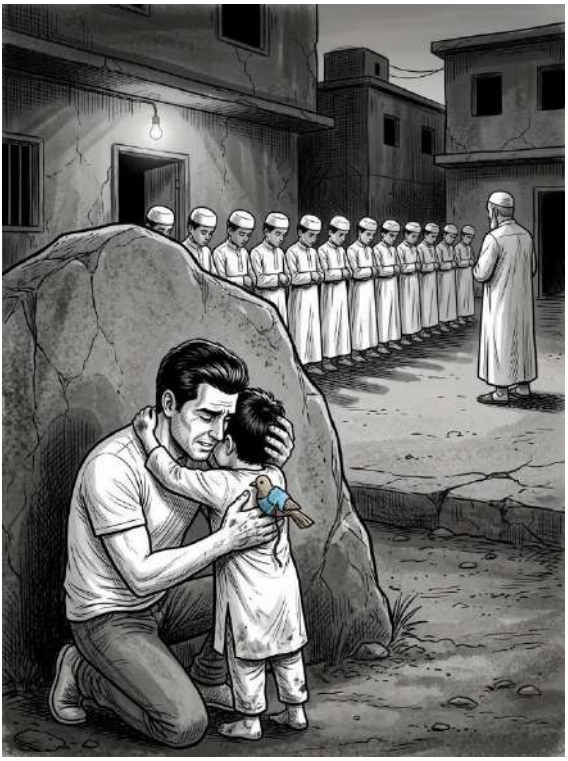
ثم ركع على ركبتيه في التراب، وفتح ذراعيه، فاندفع إليه مظبوط، وضمّه زيدان كمن يضم ابنه لا أخاه.

زيدان:

ـــ يا ابن الايه... كنت فين؟

مظبوط:

— مع سعيد.



زيدان:

— خش. خش جوه.

مظبوط:

— لأ. لازم أرجع لسعيد وإخواتي.

زيدان:

— هو سعيد معاك؟

مظبوط:

— إحنا كتير.

ونظر من فوق كتف زيدان إلى الصف الأبيض في الجنينة.

مظبوط:

— بس مين العيال دول؟

زيدان:

— دول إخوات جداد. بس قول لسعيد يجي بالليل عند الباب. هفهمه كل حاجة.

مسح زيدان وجه الصغير بكمّه، وقبّل رأسه، ثم وقف.

وجرى مظبوط عبر الحصى حتى اختفى خلف الحجر الكبير. وبقيت زهرة تعدّ الحصى.

وفي العصر كأنت الساعة النحاسية في الممر ما تزال على الرابعة وربع.

وقف زيدان في طرف الممر، ووجهه إلى الحائط، حتى سمع الباب يُفتح خلفه.

خرج إبراهيم من غرفة البابا، وذراعه حول كتفي فاتن. كأنت في ثوبها الأسود الطويل، والقماش الأسود المطوي تحت إبطها، ورأسها مرفوع وعيناها أمامها لا تنظران إلى شيء. لم تبتسم. ولم تنظر إلى زيدان وهي تمر.

مرّا أمام الساعة دون أن يرفع أحد منهما عينيه إليها، ومشيا إلى الغرفة التي في آخر الممر، غرفة عبدون، التي لم يدخلها أحد منذ هرب.

وأُغلق الباب خلفهما. وسمع زيدان صوت المزلاج.

بقي واقفاً. قبضته مضمومة حتى ابيضّت مفاصلها.

ثم نظر إلى باب غرفة البابا المفتوح، الفارغ، والتليفون الأسود على المكتب.

دخل، وأغلق الباب بظهره. ورفع السماعة، وأدار الأرقام من الذاكرة.

زيدان (همساً):

ـــ ألو؟ أيوه يا شيخون.

الفصل الخامس
الباب المفتوح

جاء صوت شيخون من الطرف الآخر ناعساً دافئاً، كأنه رفع السماعة من فوق وسادة.

شيخون:

ـــ زيدان؟ خير؟

نظر زيدان إلى الباب المغلق خلفه، ثم إلى الصورة المعلقة على الحائط. كان العجوز ما زال يبتسم.

زيدان (همساً):

ـــ يا شيخون، إحنا في مصيبة.

شيخون:

ـــ في إيه يا زيدان؟ احكيلي.

زيدان:

ـــ واحد نزل علينا من الصحرا، اسمه بابا إبراهيم. بيحكم الدار، وبيقول إنه هيعلمنا ديننا ويدير الدار وهيراعي ربنا فينا.

شيخون:

ـــ طب وإيه المشكلة؟ مش بتقول هيراعي ربنا؟

زيدان:

ـــ ما هو بيقول كده، بس بيعمل حاجات غريبة.

شيخون:

ـــ غريبة إزاي؟

زيدان:

ـــ جاب أكتر من عشرين طفل مرة واحدة. وبيقول إن ليهم كفلاء وهيبعتوله فلوس كل شهر عشانهم وهيدير الدار بالفلوس دي.

وقال إننا ما نعرفش ربنا وهيعلمنا الدين. واتجوز فاتن، أختي الصغيرة.

شيخون:

ـــ اتجوزها إزاي؟ دي عيلة! هو سنه قد إيه إبراهيم ده؟ والعيال دي جابها منين؟

زيدان:

ـــ هو عنده ستين وأكتر. واتجوزها وبيقول ده سنة الرسول عليه الصلاة والسلام. ولبّسها نقاب أسود غصب عنها.

والعيال دي معرفش جمعهم منين، بس العربية اللي نقلتهم كان مكتوب عليها دار السراج المنير.

سكت شيخون. ثم قال بصوت تغيّر قليلاً:

شيخون:

ـــ السراج المنير. أيوه. كده فهمت. ده أنتم هتشوفوا أيام سودة.

زيدان:

ـــ إنت تعرفهم؟

شيخون:

ـــ طبعاً أعرفهم. أكتر من أي حد. بس سيبك دلوقتي، في حاجات أهم.

زيدان:

ـــ وإنت مش هتساعدنا؟

شيخون:

ـــ هساعدكم طبعاً. إنتوا عارفين أنا بحبكم قد إيه.

زيدان:

ـــ سيبك من موضوع إنك بتحبنا ده. مفيش حد بيحب حد بيديله سم عشان يسم إخواته، ويدي إخواته سم عشان يسمّوه.

شيخون:

ـــ خد بالك من طريقتك معايا، وبطّل العبط اللي إنت بتقوله ده. لو تقصد عبدون، فهو فعلاً طلب مني ومن ولاد عمنا طريقة يخلّص بيها من أعدائه.

وأنا قلقت من كلامه. بس لو كنت قلتله لأ، ولاد العم كانوا هيدّوله اللي هو عايزه.

فديته سم ضعيف ما يموّتش، وإلا ما كانش زمانك عايش وبتكلمني دلوقتي.

وأضاف، بنبرة من يقلّب كفيه أمام شخص لا يرى:

شيخون:

ـــ وفي نفس الوقت أديتك إنت السم الحقيقي من غير حتى ما تطلب.

يعني لو ما كنتش بحبك، كنت أديته لغيرك ولا عرفتك حاجة. وعموماً يا سيدي، أنا ما بحبكش. بتكلمني ليه دلوقتي؟

زيدان:

ـــ عشان مصلحتك ومصلحتي. إبراهيم ده يمشي، والأوضاع تستقر.

شيخون:

ـــ إنت لسه مش مصدقني.

زيدان (بصوت غير راضٍ):

ـــ مصدّق يا شيخون. مصدقك.

زيدان:

ـــ بس قولي رأيك أتصرف إزاي؟

شيخون:

ـــ احكيلي إيه الوضع بالظبط، وإنت عملت إيه.

زيدان:

ـــ الوضع زفت. وأنا لوحدي مش عارف أتصرف. وفاتن غلبانة، بتقول على كل حاجة حاضر.

والعيال العيانة محدش يعرف عنهم حاجة. بابا إبراهيم مانعنا نقرب منهم بحجة العدوى، وحتى صوتهم وهما بيكحّوا مبقاش طالع.

زيدان:

ـــ والعيال الصغيرة اللي جابهم بابا إبراهيم تحسهم متبرمجين، ممسوح عقولهم. بينفذوا اللي يتقالهم حتى من غير ما يفكروا ليه.

وملهمش ولاء غير لبابا إبراهيم. وكبيرهم عيل اسمه عبد الرحمن، سمج أوي، أصغر مني حبتين بس عامل فيها سبع البرمبة. بيقوّم العيال الصبح ويعلمهم تمرينات كلها عنف.

شيخون:

ـــ طب إنت عملت إيه؟ ولا في إيه في دماغك؟

زيدان:

ـــ ولا حاجة. أنا لقيت مفيش قدامي غير إخواتي اللي في البدروم.

أصل بابا إبراهيم رفض يخرجهم، بيقول حدود الله. نزلتلهم وقلت لهم كل البلاوي اللي بتحصل فوق، واتفقت إني هتسحب وأنزل بالليل نشوف سوا هنتصرف إزاي.

شيخون:

ـــ يا نهار أسود! ده الموضوع عندكم كبير أوي. كمّل، كمّل.

زيدان:

ـــ أكمل إيه؟ كده خلصت. أنا بس قلتلهم، لكن لسه مش عارفين هنعمل إيه.

سكت الاثنان نصف دقيقة، يفكران.

زيدان:

ـــ صحيح، في حاجة مهمة كمان. مظبوط فاكره، ده عيل صغير من إخواتي اللي اتفرقوا بعد ما الندل عبدون فتح الباب وهرب.

جه النهاردة من ورا إبراهيم، وقال إن سعيد جمعهم وبنوا عشش عايشين فيها. واتفقت معاه أقابل سعيد في السر النهاردة بالليل قدام باب الدار.

شيخون:

ـــ طيب، بص بقى. عشان كده إنت داخل على منعطف بعده، يا هتبدأ مرحلة صراعات خطر، يا هتبقى الدار كلها في ذمة الله.

زيدان:

ـــ طب ده الحلّين زفت. مفيش حل تالت؟

شيخون (ساخراً):

ـــ منين يجيها! الوضع عندك دلوقتي مفيش فيه غير حل واحد:

مواجهة خطرة. لو فشلت هتبقى مصيبة. ولو نجحت هتبقى مصيبة برضه.

زيدان:

ـــ لو فشلت مفهوم مصيبة ليه، إنما لو نجحت مصيبة إزاي؟ إنت بتفكر في إيه يا شيخون؟

سكت شيخون لحظة، ثم قال كمن يلقي نقوداً صغيرة على طاولة:

شيخون:

ـــ أبو قرش على أبو قرشين.

زيدان:

ـــ يعني إيه؟

شيخون:

ـــ يعني نخسر قرش النهاردة ولا نخسر قرشين بكرة. يعني الفوضى هي الحل.

وسكت طويلاً، ثم أكمل:

شيخون:

ـــ شوف. إنت هتعمل فوضى مفاجئة تحاصر إبراهيم وعبد الرحمن، لحد ما حاجة من الاتنين تحصل: يا إما يهرب، لا قدّر الله. يا إما تزوّد له أوضة في البدروم.

زيدان:

ـــ نزود أوضة!!! معاك ممكن نشيل الحاجات المتخزنة ونبني أوضة جديدة، نسميها عنبر اللي بيحتاجوا في الدين.

وضحك ضحكة سخيفة، وحده.

شيخون:

ـــ يا عم سمّيها زي ما تسمّيها. خلينا دلوقتي في المهم.

شيخون:

ـــ إنت هتنزل البدروم، وتقول للي ماسكين العنبرين، بكر ومنى، إنك هتسيب الأقفال بتاعة كل أبواب البدروم مفتوحة. وتتفق معاهم على كلمة سر، أول ما تقولها بصوت عالي كل اللي تحت يطلعوا ويحاصروا إبراهيم وعبد الرحمن. وياريت ده يحصل والولاد اللي جايين من دار السراج المنير في أوضتهم، عشان تستفردوا بيهم.

زيدان:

ـــ وإمتى أديهم كلمة السر دي؟

شيخون:

ـــ اصبر على رزقك. مش إنت هتقابل سعيد بالليل؟

اتفق معاه على ميعاد وفهّمه الخطة.

وإنت هتتخانق الأول مع عبد الرحمن في الساحة، عشان تسحب إبراهيم للساحة عندك بالتحديد، تحت الشجرة بتاعتي.

زيدان:

ـــ شجرة بتاعتك؟!

شيخون:

ـــ شجرة الكافور إيه، هتنصب عليا ولا إيه؟ أنا مش شاريها من عبدون عشان هو صاحبي. عبدون كان هنا بيمثل الدار، مش بيمثل نفسه. يعني أنا شاري شجرة الكافور منكم كلكم.

زيدان:

ـــ بتاعتك طبعاً. ولو عايز الشجر البلاستيك كمان خده.

شيخون:

ـــ لأ، ده بعتهولكم هدية.

ثم عاد صوته جاداً:

شيخون:

ـــ المهم. قبل ما إبراهيم يوصل، هتقول لعبد الرحمن بصوت عالي: ده دار الأمل مش دار السراج المنير. أول ما إبراهيم

يقرب، سعيد هيسمع الكلمة دي، وتكون سايبله باب الدار مفتوح. يدخل هو وإخواتك اللي معاه، ويعملوا دايرة حواليه.

زيدان:

ـــ طب مهو العيال ولاده هيطلعوا يتخانقوا معانا، وهتبقى فوضى مش محسوبة.

شيخون:

ـــ فوضى، آه. مش محسوبة، لأ.

إنت عندك حق.

العيال هتطلع، وتبقوا عشرين قصاد عشرين. وهما مؤمنين باللي بيعملوه، متربيين على السمع والطاعة. هيبقى الواحد منهم بإتنين من عندكم.

زيدان:

ـــوبكده الفوضى لمصلحتهم.

شيخون:

ـــ عشان إنت ناسي البدروم.

شوف. بمجرد ما ولاد دار السراج المنير يطلعوا ويحاولوا يقفوا جنب بابا بتاعهم قدامك أنت وسعيد واللي معاه، إنت هتقول كلمة السر بتاعة بكر ومنى. واللي معاهم في السجن دول يطلعوا ويعملوا فوضى ويشتبكوا مع إبراهيم وعياله.

وقتها إنتوا هتبقوا أكتر بكتير. ولو هما مؤمنين، فاللي في السجن مقهورين، وهيطلعوا وحوش. وإحنا نشوف بقي الغضب والغل ولا الإيمان، مين اللي هيكسب.

زيدان:

ـــ طب لما هو كده، ليه بتقول إننا لو نجحنا في اللي بنعمله هتبقى كارثة برضه؟

شيخون:

ـــ عشان اللي في السجن دول مش هيكبروا لحد لو هما كانوا السبب في النجاح. وهتلاقي نصهم فاكر نفسه هيبقى البابا.

زيدان:

ـــ طب وإنت رأيك مين هيبقى البابا بعد ما نخلص من إبراهيم؟

شيخون:

ـــ اللي هيعرف ياكل ويعول اليتامى.

زيدان:

ـــ مين؟ كلنا زي بعض.

شيخون:

ـــ لأ. مش زي بعض ولا حاجة. في واحد بس في الدار قوي، ورجالته كانوا مخلصين له، وأهم راجعين ليه هدية من سعيد.

وكمان هو الوحيد اللي يعرف شيخون وسعداوي وولاد عمنا ودور أيتام الغرب. ومش بس معرفة، لأ. كمان بنثق فيه.

ابتسم زيدان، ولم يرَ أحد الابتسامة.

زيدان:

ـــ يعني هتساعدني أسيطر بعدها؟

شيخون:

ـــ هساعدك، وهتسيطر على الكل. واللي ما تعرفش تسيطر عليه، أهو السم لسه معاك. هو بيعرف يتصرف.

وفي تلك اللحظة، من الجنينة، ارتفع الأذان.

صوت صبي حاد وقوي، يخرج من حنجرة لا تخطئ نغمة.

زيدان (بسرعة):

ـــ لازم أقفل.

شيخون:

ـــ اتفقنا سلام

وضع السماعة، ونظر من الشباك. كان الأولاد الجدد يخرجون من غرفهم صفاً بعد صف إلى الساحة، تحت شجرة الكافور، وفي مقدمتهم قامة نحيلة طويلة تمدّ يديها كأنها تقودهم.

ثم وضع زيدان يده على جيبه الداخلي. كان هناك شيء صغير وصلب يرقد منذ أسابيع، لم يعد يذكر متى بدأ يشعر بوزنه.

وفي منتصف الليل مشى زيدان بين الأجساد البيضاء النائمة في الجنينة، على أطراف أصابعه، كمن يمشي على أحجار في نهر.

وقبل أن تصل يده إلى القفل الحديدي، جاءه همس من الجهة الأخرى:

سعيد (من وراء الباب):

ـــ إنت لسه عايش يا ابن الايه؟

ضحك زيدان ضحكة قصيرة. ولم يكن قد ضحك منذ أسبوع.

زيدان:

ـــ وإنت لسه بتقول نكت وإحنا بنتحرق؟

سعيد:

ـــ أنا بطلت.

فتح زيدان الباب شقاً. وكان وراءه سعيد، شاحباً ومغبراً، ومعه مظبوط وسالم، وعلى بعد خطوات وراءهم ظلال أخرى تنتظر.

وقفا وجهاً لوجه ثانيتين. ولم يكن بينهما غير شق ضيق.

سعيد:

ـــ فاتن؟

سكت زيدان. وفي سكوته كل شيء.

زيدان:

ـــ اتجوزت.

سعيد:

ـــ مظبوط قالي. مش مصدق. اتجوزت مين؟

زيدان:

ـــ العجوز اللي نزل علينا من الصحرا. وأنا ب إيدي وقّعت على الورقة.

مدّ سعيد يده وأمسك قميص زيدان من صدره، وشدّه حتى اصطدم وجهه بحافة الباب الحديدي.

سعيد:

ـــ إنت وقّعت؟

زيدان:

ـــ وقّعت. ولو عايز اضربني. بس بعد ما نخلص.

رأى سعيد في عيني زيدان شيئاً لم يتوقعه، ليس عناداً ولا خوفاً، بل رجلاً سقط ويحاول أن ينهض. فأرخى يده.

سعيد:

ـــ ما كانش المفروض أمشي.

زيدان:

ـــ ما كانش المفروض أفضل.

ولم يقل أحد منهما أكثر. وكان هذا كافياً.

زيدان:

ـــ مفيش وقت. قدامنا ليلة واحدة.

ثم راح يشرح الخطة بصوت خفيض، وسعيد يستمع، ومظبوط وسالم يستمعان، ونظراتهم تتحرك بين زيدان وبين الجنينة النائمة وراءه.

زيدان:

ـــ بكرة عند الغروب، الكل بيبقى في الساحة تحت شجرة الكافور.

هتستخبوا ورا الحجر الكبير، وأنا هسيب الباب مفتوح. هتسمعوا مني جملة: ده دار الأمل مش دار السراج المنير.

ساعتها تدخلوا. كل واحد يمسك أي حاجة من الأرض. وتعملوا دايرة حوالين إبراهيم.

سعيد:

ـــ دول عيال يا زيدان. هنضرب عيال؟

زيدان:

ـــ مش هتضرب. هتحاصر بس. والباقي هيحصل لوحده.

سعيد:

ـــ الباقي ده إيه؟

نظر زيدان إلى الأرض، ثم إلى الأسفل، إلى حيث الأرض تخفي ما تخفيه.

زيدان:

ـــ بكر ومنى.

سعيد:

ـــ إنت هتفتح البدروم؟

زيدان:

ـــ ده الحل الوحيد.

سعيد (بصوت كاد لا يُسمع):

ـــ والعيانين؟

زيدان:

ـــ بقالهم يومين ملهمش صوت.

أغمض سعيد عينيه. وحين فتحهما كان قد حسم شيئاً.

سعيد:

ـــ هنكون عشرين.

زيدان:

ـــ وهما عشرين.

سعيد:

ـــ الله يرحمنا.

مدّ زيدان يده من الشق، فأمسكها سعيد بقوة.

سعيد:

ـــ وبعدين؟ هاتتخانقوا تاني مين البابا؟

زيدان:

ـــ هنشوف.

سعيد:

ـــ محدش هايبقي البابا تاني. وأنا قلت لأخواتك ممنوع حد يقولي كلمة بابا.

زيدان:

ـــ ما تقلقش يا سعيد.

وانسحب سعيد في العتمة، ومعه الظلال. وأغلق زيدان الباب بحذر، وبقي واقفاً لحظة ويده على القفل، لا يعرف إن كان قد فتح شيئاً أم أغلقه.

ونزل زيدان إلى البدروم.

كان الصمت هناك قد صار عادة. فتح النظارة الصغيرة في الباب الحديدي، وجاء صوت بكر قبل أن يتكلم:

بكر:

ـــ حضرة النايب. جاي بالليل ليه؟

زيدان:

ـــ هو إحنا مش اتفقنا يا بكر أنا جاي أفتح لك الباب.

ساد صمت طويل، كأن بكر يزن الجملة بيديه.

بكر:

ـــ وده بقى عشن أعمل إيه بالظبط؟

زيدان:

ـــ عشان إنت قلت إنك تبقى البابا. وأنا قلت: موافق.

بكر:

ـــ طيب قولي اللي في دماغك؟

زيدان:

ـــ هسيب الأقفال مفتوحة. وهتستنوا كلمة السر. أول ما تسمعوها منّي بصوت عالي، تطلعوا كلكم، ها تلاقوا اشتباك بيني وبين العيال الجداد وبابا إبراهيم وتحاصروا إبراهيم وعبد الرحمن.

بكر:

ـــ وكلمة السر إيه؟

زيدان:

ـــ الباب مفتوح.

ضحك بكر ضحكة قصيرة، ثقيلة، لم يضحكها منذ دخل البدروم.

بكر:

ـــ الباب مفتوح. تمام. حلوة.

زيدان:

ـــ وكلهم يسمعوا الكلمة. كل اللي تحت.

بكر:

ـــ كلهم هايسمعوا. ويعرفوا إنّي اللي طلّعتهم.

وأدار زيدان وجهه ليخرج.

بكر:

ـــ يا زيدان.

التفت.

بكر:

ـــ إنت قلت أنا البابا.

نظر إليه زيدان من وراء الفتحة الضيقة. ولم يكن في وجهه غير هدوء.

زيدان:

ـــ البابا يا بكر.

وأنتفخ صدر بكر خلف الباب، حتى سمعه زيدان.

ثم مشى إلى باب سجن النساء، وفتح النظارة.

منى (قبل أن يتكلم):

ـــ سمعت كل اللي قولته لبكر، متعدش الكلام للتأكيد بكلمة السر تاني.

زيدان:

ـــ الباب مفتوح.

منى:

ـــ كلمة سر حلوة. اخترتها عشان تحس إنك اللي فتحته؟

زيدان:

ـــ اخترتها عشان محدش يتوقعها.

نظرت منى إليه طويلاً، دون أن تقول شيئاً. ثم أومأت.

منى:

ـــ هنسمع. وهنطلع بس عايزة أقولك حاجه قبل ما تمشي يابابا. الحاكم مش لازم يبقي البابا ممكن أوي يبقي الماما

ضحك زيدان وانسحب. وسمع وهو يصعد صوتي الفتاتين يتحدثان في الظلام.

نوران (بصوت متحجر):

ـــ أنا مش ممكن أثق فيه. مش ممكن يا منى.

منى:

ـــ ما تثقيش فيه.

كان الجواب هادئاً حتى إن نوران أنتظرت أن يتبعه شيء.

منى:

ـــ ما تثقيش فيه عشان أخوكي، ولا عشان طيب. ثقي فيه عشان هو كمان له مصلحة إننا نخلص من إبراهيم.

المصلحة دي هي اللي بتخلّيه معانا. كل حاجة ليها وقتها يا نوران. وهيتحاسب في يوم.

نوران:

ـــ وإنتي هتحاسبيه؟

منى:

ـــ أنا؟ لأ. اللي هيحاسبه مش أنا.

وسكتتا، والماء يقطر في مكان ما من السقف.

ومن زنزانة إلى زنزانة، همساً، كما تسري النار في القش، مرّت جملة واحدة في الظلام: «الباب مفتوح». ثم أخرى: «الباب مفتوح». حتى حفظها كل من في البدروم، كأنها صلاة.

وفي الفجر ارتفع صوت العصي في الساحة.

كان عبد الرحمن واقفاً أمام الأولاد الجدد، صفاً بعد صف، وفي يده عصا طويلة يرفعها وينزلها ويقول كلمة، فيردّدها الأولاد بصوت واحد: «سمعاً وطاعة».

ويرفعها ويقول أخرى: «سمعاً وطاعة». ثم يأمر الصف الأول بالركوع، والثاني بالانبطاح، والثالث بالجري. وإذا أخطأ أحدهم نزلت العصا على كفه.

ورآه زيدان من الشباك. ولم يتحرك.

ومرّ النهار كما يمر على من ينتظر.

في الظهر رأى فاتن تعبر الممر بثوبها الأسود، والقماش الأسود قد صار نقاباً، بشقّين صغيرين تنظر منهما أمامها دون أن تنظر. لم تلتفت إليه. وسمع خلفها خطوات إبراهيم الهادئة، وصوته الدافئ يهمس بشيء لا يُفهم.

وفي العصر، وقف زيدان عند أعمدة الرخام، وعدّ الأولاد. ثم عدّ الجنينة. ثم عدّ الدقائق.

وعند الغروب كأنت السماء قد صارت لوناً لا اسم له.

وقف الأولاد الجدد صفوفاً تحت شجرة الكافور العتيقة، وإبراهيم لم يخرج بعد من غرفته. أمامهم وقف عبد الرحمن يعدّلهم بعصاه، ويتفقد الأصابع المضمومة، والرؤوس المطأطأة.

وعلى بعد مئة خطوة، خلف الحجر الكبير الذي يخفي الدار عن الصحراء، كان سعيد ملتصقاً بالحجر، ومعه عشرون ولداً يكتمون أنفاسهم، أيديهم فارغة.

سالم (همساً):

ـــ هو إحنا هنضرب؟

سعيد:

ـــ إحنا هنقف.

حسن:

ـــ وإن ضربونا؟

سعيد:

ـــ نقف برضه.

وكان مظبوط يعدّهم على أصابعه بصوت لا يكاد يُسمع، ثم همس:

مظبوط:

ـــ عشرين. وسعيد واحد وعشرين.

سعيد:

ـــ ما بقيتش بعدّ.

ومن الباب الجانبي دخل زيدان، يمشي بخطى بطيئة وفي وجهه شيء لا يخفيه.

وقف أمام عبد الرحمن، وقال بصوت عالٍ، لا يمكن أن يفوت أحداً:

زيدان:

ـــ إنت اللي ضربت الصغير ده الصبح.

لم يلتفت عبد الرحمن.

عبد الرحمن:

ـــ ده تأديب يا أخي.

زيدان:

ـــ وأنا مش أخوك. أنا نايب بابا إبراهيم، مش إنت.

عبد الرحمن:

ـــ بابا إبراهيم اللي بيقول مين نايبه ومين لأ.

ورفع زيدان يده ودفعه في صدره دفعة قوية.

تراجع عبد الرحمن خطوتين. ثم رفع عصاه ببطء، وابتسم زيدان، كان ينتظر هذه الدفعة منذ جاء.

أول ضربة أصابت ذراع زيدان، فانحنى. والثانية أصابت ساقه. وسقط على ركبته، ثم قام، ثم دفع الصبي مرة أخرى، وصاح:

زيدان:

ـــ أنا اللي كبير هنا! وإنت ولا حاجة!

وجاء الصوت من الممر قبل أن يظهر صاحبه:

بابا إبراهيم:

ـــ أستغفر الله! عيب! زيدان! عبد الرحمن!

خرج إبراهيم من الباب الجانبي، وتبعته من بعيد فاتن في ثوبها الأسود، ثم توقفت عند العتبة.

مشى إبراهيم إلى وسط الساحة، تحت أغصان الكافور تحديداً، رافعاً كفّيه كمن يفض عراكاً بين صغيرين.

وحين صار في الموضع الذي أراده شيخون، صرخ زيدان بأعلى ما في صدره:

زيدان:

ـــ ده دار الأمل! مش دار السراج المنير!

انفتح الباب الحديدي على مصراعيه.

ولم يئن.

دخلوا في وقت واحد، كأن الأرض أرسلتهم:

سعيد في المقدمة التقط سريعاً عصا المقشة صديقته يوم واجه عبدون، وخلفه سالم وحسن وياسين وإياد ومظبوط، وأربعة عشر آخرون لم يرهم إبراهيم قط، وكل واحد منهم يمدّ يده وهو يجري إلى الأرض فيلتقط شيئاً: حجراً، عموداً خشبياً، ساق كرسي، فرع نخلة بلاستيك، مطرقة من الصناديق المسمّرة.

وفي ثانيتين كأنت الدائرة قد أُغلقت حول الكافور.

تجمّد إبراهيم في مكانه. نظر إلى الدائرة. ثم إلى وجه سعيد. ثم إلى زيدان.

بابا إبراهيم:

ـــ إنت مين؟

سعيد:

ـــ أنا سعيد.

بابا إبراهيم:

ـــ أنا ما سمعتش عنك.

سعيد:

ـــ بس أنا سمعت عنك كتير.

وبدأ إبراهيم يتراجع، خطوة، ثم أخرى، حتى لامس ظهره جذع الكافور.

عبد الرحمن (بصوت يشق الساحة):

ـــ يا ولاد! السراج المنير!

وفي ثانية واحدة تحولت الصفوف البيضاء إلى شيء آخر.

مدّ كل ولد منهم يده إلى كومة العصي المرصوصة عند الجدار، العصي التي يتدربون بها كل فجر، والتقط كل منهم عصاه دون أن ينظر، كأن يده تعرف الطريق. ثم اندفعوا. بلا صرخة. بصوت واحد منخفض، يتردد في الغروب:

الأولاد الجدد:

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل.

واصطدم الجمعان.

كأنت عصي تضرب عصياً، ثم حجراً، ثم ظهراً. وخرج من الدائرة صراخ حاد، ثم آخر، ثم عدة صرخات.

وصاح إبراهيم بصوته الدافئ المخملي، الصوت الذي أسكت اثنين وعشرين ولداً بنَفَس واحد:

بابا إبراهيم:

ـــ اسكتوا! أنا بابا!

ولم يسكت أحد.

ولأول مرة منذ جاء، مرّ صوته فوق الرؤوس كما يمرّ الهواء.

ووقف زيدان في وسط الغبار، لم يضرب أحداً ولم يضربه أحد، يعدّ في رأسه كما علّمه شيخون: قرش النهاردة، وقرشين بكرة. ثم التفت إلى باب البدروم وصاح بكل ما فيه:

زيدان:

ـــ الباب مفتوح!

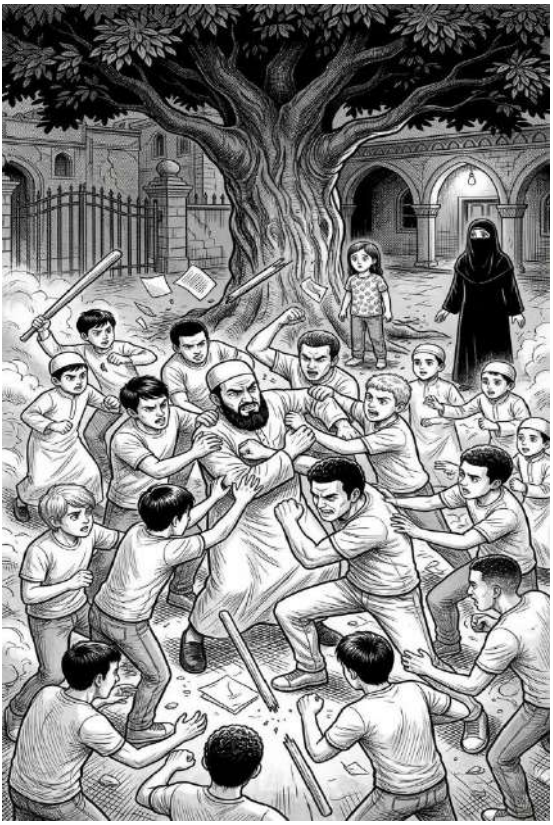
فسمعت الأرض.

انفتحت أبواب البدروم كلها دفعة واحدة، كأن شيئاً دفعها من الداخل. وخرجوا.

خرج بكر أولاً، ممتلئاً بغضب كأنه ما زال عشرة أشخاص، وخلفه أولاده، نحيلين، بعيونهم الواسعة الجائعة، وعصيهم من أرجل الأسرّة المكسورة.

وخرجت منى بعدهم، ومعها نوران وبنات سجن النساء، لا يصرخن، يمشين بخطى سريعة ثابتة، كأنهن ذاهبات إلى مكان يعرفنه.

وأحاطوا بالأولاد الجدد من الخلف، وأغلقوا الدائرة الثانية.



وصارت الساحة طوقين: طوق سعيد حول الكافور، وطوق بكر حول الجميع. وفي الوسط، بين الطوقين، كان أولاد السراج المنير محاصرين من الجهتين.

ومن طرف الساحة جاء صوت يعرفه الجميع، الصوت الذي ملأ البدروم من قبل: «اقفلوا الدايرة! محدش يهرب!». كأنت منى واقفة عند الجدار، ويدها مرفوعة، وبناتها يتحركن بإشارتها كما يتحرك شيء يعرف من يقوده.

لم يعرف أحد بعدها على وجه الدقة كيف دارت المعركة.

كان في الساحة ذلك المساء كل أنواع الأولاد: من يقاتل من أجل شيء، ومن يقاتل لأن غيره يقاتل، ومن لا يعرف لماذا فرح بالعصا في يده. وكانوا كلهم، لو سألتهم، يقولون إنهم على حق.

ورأى زيدان حسن يتلقى ضربة على كتفه، فيرتد ويضرب. ورأى ياسين يسحب إياد من تحت عصا. ورأى مظبوط ينحني ويلتقط لعبته الزرقاء من الأرض بين أرجل الأولاد، ويضمها إلى صدره ويجري إلى الخلف. ورأى أحد أولاد بكر يرمي حجراً دون أن يصوّب. ورأى سالم يقف بين اثنين ويصيح بشيء لا يسمعه أحد.

وكان سعيد في قلب الدائرة يصيح بصوت لم يعرف أنه يملكه: «ما تضربوش! امسكوهم! امسكوهم بس!». فتح يديه وأمسك معصم صبي في جلباب أبيض رفع عصاه، وسحبه خارج الزحام. رفسه الصبي في ساقه حتى انحنى. ولم يضربه سعيد. أمسكه فقط، كمن يمسك طائراً.

وانهار أحد أولاد بكر في منتصف ضربة، من الضعف والجوع لا من الضرب، وجلس على الأرض ولم يستطع القيام.

فاقترب منه صبي من أولاد السراج المنير، ورفع عصاه فوق رأسه... ثم أنزلها، وسحبه من إبطيه إلى ظل الجدار، وعاد إلى القتال دون كلمة.

وكأنت نوران وجهاً لوجه أمام صبي بعصا مرفوعة، تتنفس بصعوبة.

رأت في عينيه خوفاً تعرفه. فتجمدت. ثم قالت بصوت منخفض لا يقبل نقاشاً: «نزّل العصايا». فنزّلها. ولم يعرف أي منهما كيف حدث ذلك.

ورأى عبد الرحمن زيدان واقفاً وحده في وسط الغبار، سالماً، فهم في لحظة من الذي فتح الباب.

رفع عصاه نحوه وصاح: «إنت!». لكن زيدان كان قد اختفى خلف عمود الرخام.

وكان إبراهيم ملتصقاً بجذع الكافور، وجهه شاحب، وفمه ينطق بكلام بلا صوت. سقطت مسبحته من يده وأنكسر خيطها، وتدحرجت حباتها السوداء بين الأقدام.

بابا إبراهيم (بصوت مبحوح):

ـــ أستغفر الله... أستغفر الله العظيم... حسبي الله...

أما عبد الرحمن فكان في وسط الدائرة، لا يعرف الخوف. قفز على ظهر ولد، وضرب آخر على كتفه، وأدار عصاه فأصاب ثالثاً. كان وجهه مبتلاً بالعرق، وعيناه تلمعان. وكان يصيح وهو يضرب:

عبد الرحمن:

ـــ ما حدش يقرب من بابا! ما حدش!

ونظر إبراهيم نحو الباب الجانبي، فرأى الثوب الأسود واقفاً عند العتبة.

بابا إبراهيم (بصوت يرتجف):

ـــ فاتن! ادخلي جوه! سمعتي؟ ادخلي!

ظلت فاتن واقفة لحظة. ثم نزلت درجة العتبة. ولم تدخل.

ثم جاء صوت من أقصى الباب الجانبي، حاد، يشق كل الضجيج، صوت لم يسمعه أحد منها هكذا من قبل:

فاتن:

ـــ لأ!

ركضت في ثوبها الأسود الطويل بين الأولاد، وقفزت فوق عصا، ووصلت إلى وسط الساحة، ووقفت هناك بين طفلين، وفتحت ذراعيها.

فاتن:

ـــ لأ! دول عيال غلابة أيتام زينا! محدش يضرب العيال!

لم يسمع فاتن أحداً. أو سمعوها ولم يتوقفوا.

وانحنت وسحبت صبياً صغيراً من تحت عصا مرفوعة، فهبطت العصا على كتفها. لم تصرخ. ظلت واقفة أمام الصبي، ومن شقّي النقاب لا يُرى غير عينين تتسعان.

كان هو. الصغير ذو التمرة. تعلّق بثوبها الأسود بكلتا يديه، ولم يسأل إن كان ذلك ينفع أو لا ينفع.

ثم رآها بكر.

اندفع نحوها بين الأولاد، عارياً من كل شيء إلا غضبه، ورفع يده، فارتدت. لكنه لم يضربها. أمسك طرف القماش الأسود على وجهها وشدّه بقوة.

بكر:

ـــ ده مش لبسك!



سقط النقاب في يده. وظهر وجه فاتن في الغروب، شاحباً، وفي عينيها كل ما لم تقله خلال الأيام الماضية.

فاتن:

— مش لبسي يا بكر.

ثم قالت، بصوت لا يقبل أن يُرفض:

فاتن:

— بس وقّف اللي بيحصل.

وقف بكر مكانه. نظر إلى وجهها، ثم إلى الساحة، كأنه رآها لأول مرة. وفي يده القماش الأسود يتدلى، كمن لا يعرف أين يضعه.

وفي تلك الثانية تحديداً، ثانية واحدة لم يلتفت فيها أحد إلى جذع الكافور، انزلق إبراهيم.

رآه سعيد أولاً. رأى الرجل الذي كان ملتصقاً بالجذع يترك مكانه وينسل على حافة الجدار، ثم ينطلق. ورآه زيدان. ورأته زهرة من فوق الباب الحديدي حيث كأنت تعد.

جرى إبراهيم، بجلبابه الأبيض الواسع يرفرف حوله، مروراً بالأولاد، من الباب الحديدي المفتوح على الصحراء.

لم يلتفت. ولم يُنادِ أحداً. اختفى في العتمة، كأن الأرض فتحت له.

ومرّ تحت الباب الذي تجلس زهرة فوقه، ولم يرفع عينيه إليها.

نظرت إليه وهو يبتعد في العتمة، ثم عادت تعدّ على أصابعها: واحد، اتنين، تلاتة... ولم تصل إلى العشرة.

عبد الرحمن (وقد رأى):

— يا بابا! يا بابا!

وانطلق خلفه، لكن سعيد كان أسرع. قفز على ظهره، وأمسكه من ذراعيه، وجاء بكر من الجهة الأخرى، وسقط ثلاثتهم على الأرض.

عبد الرحمن (وهو يصرخ):

— سيبوني! سيبوني! بابا! يا بابا!

عضّ ذراع سعيد حتى أنّ. وركله في بطنه. وأنتزع يداً.

سعيد:

— الحبل! حد يجيب أي حاجة!

وناوله بكر القماش الأسود الذي كان في يده. فلفّه سعيد حول معصمي عبد الرحمن، وعقده، وشدّ، بينما الصبي يعوي في وجههما كالمطعون.

وحين رأى الأولاد الجدد قائدهم مربوطاً على الأرض يصرخ وبابا إبراهيم يهرب إلى الصحراء، توقفت العصي في الهواء لحظات ثم عادت لتكمل معركتها.

ثم صعد زيدان على مورجيحة الميزان.

صعد على طرفها المرتفع، الأعلى في الساحة كلها، ووقف فوقها بقامته، ورفع ذراعيه.

زيدان:

ـــ بس بس! كفاية!

لم يسمعه أحد.

زيدان:

ـــ كفاية! بس! إبراهيم هرب!

وسكتت الساحة.

سكتت دفعة واحدة، كأن يداً ضخمة أمسكت الصوت. توقفت العصا في الهواء. وتجمد الحجر بين الأصابع. وسقط الغبار.



زيدان:

— إبراهيم هرب.

وفي أقصى الصف الأبيض سقطت عصا من يد أحد الأولاد الجدد، ثم أخرى، ثم أخرى، كأن شيئاً أنكسر.

وفي الصمت، للمرة الأولى منذ أيام، أنّ الباب الحديدي.

الفصل السادس
الكوز لسه مليان

ظل الصمت معلقاً فوق الساحة ما شاء له أن يظل. ثم جاء أول صوت من تحت الكافور، مبحوحاً، ملتاعاً:

عبد الرحمن (على الأرض، مكتّفاً):

— فكّوني يا كفرة! يا ولاد الحرام! بابا هيرجع، وهيحاسب كل واحد فيكم

بابا راجع... بابا راجع... بابا راجع!

لم يرد عليه أحد. كأنت الساحة كلها تلتقط أنفاسها: وجوه مغبرّة، وعصي مرمية، وحجارة عليها بقع حمراء صغيرة. ووقف سعيد وبكر على جانبي الصبي المكتّف، كل منهما ينظر إلى الآخر ولا يعرف ماذا يفعل بيديه.

نزل زيدان عن المورجيحة ببطء، كمن يختبر الأرض تحت قدميه، ومشى إلى وسط الساحة. وتجمّع الكبار حوله بلا اتفاق، كما يتجمّع الناس حول حادثة:

بكر وصدره لا يزال يعلو ويهبط، ومنى وذراعاها معقودتان، وسعيد يمسح الطين عن وجهه بكمّ قميصه، وفاتن التي لم تنزل عيناها عن الصغير المتشبّث بثوبها الأسود.

زيدان:

— إبراهيم هرب والمعركة خلصت. دلوقتي نقرر هنعمل إيه في اللي فاضل، قبل ما حد تاني يتعوّر.

بكر:

— نقرر إيه؟ هو في حاجة محتاجة قرار؟ اللي جاي من السراج المنير مكانه البدروم. كلهم، من أكبر واحد لأصغر واحد.

منى (دون أن ترفع عينيها عن الصفوف البيضاء):

ـــ نفس الباب. ونفس القفل.

بكر:

ـــ وأنا اللي هاقفل بإيدي.

وجاء من خلفهم صوت صغير، صوت من لم ينتظر أن يُسأل:

سالم:

ـــ طب ما نوديهم العشش اللي كنا عايشين فيها في الصحرا؟

التفتوا إليه. كان واقفاً في الصف الأول من أولاد سعيد، وعصاه في يده كأنه نسيها هناك.

سالم:

ـــ فيها ميّه وفيها مكان. والدار ترجع بتاعتنا إحنا لوحدنا.

بكر:

— ونبعتهم يموتوا في الصحرا يعني؟ ده لو عرفوا طريق الرجوع، هيرجعوا ومعاهم كفلاءهم وعربيتين.

سالم:

— محدش هيعرف الطريق. إحنا بس اللي...

عبد الرحمن (يصرخ من الأرض):

— حسبي الله ونعم الوكيل فيكم! دي أمانة في رقبتكم! لو مسّيتوا شعرة من واحد منهم...

لم يكمل.

مشى بكر إليه بخطى ثقيلة، وانحنى، وهوت كفّه على وجهه. صفعة واحدة جافة، سمعها كل من في الساحة، حتى الذين حاولوا ألا يسمعوا.

بكر:

ـــ اسكت.

ثم رفع رأسه وصاح:

ـــ كلهم على البدروم!

تقدّم أولاد بكر بعصيّهم المصنوعة من أرجل الأسرّة، وأمسك كل واحد منهم بذراع صبي في جلباب أبيض.

ولم يقاوم أحد. وقف الصغار كما وقفوا يوم نزلوا من العربية: الرؤوس مطأطأة، والأيدي متشابكة على البطون، كأن اليد التي تقبض على ذراعهم هي آخر ما يتوقعونه من الدنيا.

ثم جاء صوت من آخر الساحة، لم يسمعه أحد من قبل بهذا الشكل:

فاتن:

ـــ كفاية!

لم يلتفت أحد. فصاحت بصوت أعلى، وأنكسر صوتها في منتصف الكلمة:

فاتن:

ـــ كفاية بقي! كفاية! كلكم!

ركضت إلى منتصف الساحة بثوبها الأسود، وفتحت ذراعيها أمام الأولاد البيض، ثم انهارت على ركبتيها، ثم على الأرض كلها، ومدّت ذراعيها وضمّت أقرب صبيين إلى صدرها، وبينهما الصغير ذو التمرة.

فاتن:

ـــ ودول ذنبهم إيه؟

وأخذت أنفاسها المتقطعة.

فاتن:

ـــ دول عيال صغيرة، أيتام زينا. إحنا ما اخترناش نيجي دار الأمل، وهما ما اختاروش يروحوا دار السراج المنير. ولا اختاروا الطريقة اللي اتربوا بيها. وكان ممكن أي حد منكم يبقى مكانهم. أي حد!

كان الصغير ذو التمرة قد دفن وجهه في ثوبها الأسود، ويداه مشدودتان على قماشه.

وكان الصبي الأكبر الذي بجواره واقفاً مشدود الجسد، لا يتحرك، ثم ارتجفت شفته، وانحنى معها.

فاتن (للصغير، بصوت منخفض جداً):

ـــ إيه اسمك يا حبيبي؟

الصغير:

ـــ أنس.

ابتسمت فاتن وهي تبكي.

فاتن:

ـــ أنس. حلو. اسم حلو أوي.

وتقدم زيدان، ووقف فوقها، يحدق في الجسد المنهار على الأرض بكل ما فيه من احتقار وحيرة معاً.

زيدان:

ـــ إنتي اللي بتدافعي عن إبراهيم وولاده؟

رفعت وجهها إليه، ولم يعد في عينيها شيء من الصغيرة التي كأنت تقول «حاضر».

فاتن:

ـــ أنا بدافع عن أطفال ملهمش ذنب. مش بدافع عن إبراهيم.

وتقدم بكر خطوة.

بكر:

ـــ وكان فين القوة والشجاعة دي كلها يافاتن وإنتي ووكيلك زيدان بتمضوا على عقد جواز قذر؟

وارتجف زيدان، ولم يرد.

فاتن:

ـــ عشان العقد ده كان ضحيته أنا مش حد تاني. وكان مقابل إن إبراهيم يدوّر على إخواتنا اللي في الصحرا.

بكر:

ـــ وكان فين شجاعتك مع عبدون زمان؟

فاتن:

ـــ كان عشان إخواتك برضه يا بكر

إنت بس يا بكر. من كتر ما إنت شايف نفسك، مش شايف غيرك. ومش متخيل إننا ممكن نضحّي.

بكر:

ـــ وضحّيتي بيا...

وبقي بكر واقفاً، ينظر إلى الفتاة المنهارة على الأرض، وفي وجهه حيرة لا يعرف كيف يتعامل معها.

منى (تقتحم الجدال، حادة):

ـــ خلاص بقي! أنتوا هتعيدوه من الأول؟

ثم أشارت بإصبع مرتجف إلى فاتن:

منى:

ـــ اخلصي يا فاتن. عايزة تعملي إيه؟ أنا معاكي إن العيال ملهاش دعوة. إنما الكلب ده لأ.

وأشارت إلى عبد الرحمن، المكتّف تحت الكافور، الذي رفع إليها وجهه بكل ما عنده من حقد.

بكر (بعد صمت، كمن يمنح):

ـــ تمام. العيال تفضل في الدار. الكلب ده لوحده اللي ينزل.

نظرت فاتن حولها. ثم إلى سعيد.

فاتن:

ـــ إنت رأيك إيه يا سعيد؟

ظل سعيد واقفاً حيث هو، يداه متدليتان، وعيناه على الأرض.

سعيد:

ـــ أنا مش شايف دلوقتي حاجة غير إني عايز أدخل أنام في سريري. وبحلم أرجّع عربيتي.

نوران:

ـــ عربية مين يا سعيد؟ دي عربية البابا، ربنا يرجّعه بالسلامة.

زهرة (بصوت طفولي، من فوق الباب):

ـــ لأ. دي عربية سعيد. البابا مشي من زمان ومرجعش.

مظبوط:

ـــ طب هي العربية كمان مشيت ومرجعتش. هو في حد بيمشي ويرجع؟

وقفت نوران أمامه ثانية. ثم انحنت وضمّته إلى صدرها.

نوران:

ـــ إنت وإخواتك مشيتوا، وأديكم رجعتوا. طول ما إحنا واثقين إن الغايب هيرجع، يبقى هيرجع.

نظر إليها مظبوط من فوق كتفها، كمن يريد أن يصدقها ولا يعرف كيف.

زيدان:

ـــ ممكن نخلص بقي التمثيليات الفارغة دي؟

التفت إلى مراهق نحيل واقف في الظل، كان أحد رجاله أيام عبدون.

زيدان:

ـــ يا عاصم.

عاصم:

ـــ أمرك يا زيدان.

زيدان:

ـــ نزّل الكلب اللي اسمه عبد الرحمن ده على البدروم. وخد إخواتك. والحتة اللي بين السلم والحيطة تتقفل وتتعمل زنزانة خاصة لمولانا.

ولحد ما ده يحصل، احبسه في سجن الحريم... أقصد سجن النساء (ونظر لمني) بعد إذن عظمة الماما طبعاً.

عبد الرحمن:

ـــ اثبتوا يا ولاد! بابا هيرجع! اثبتوا!

لم يلتفت الصغار. ظلّوا في حضن فاتن، وعيونهم على الأرض، لا يعرفون صوت من يسمعون.

وقبل أن يتحرك عاصم، قال بكر بصوت هادئ مخيف:

بكر:

ـــ إنت مين عشان بتدي أوامر قدام ولادي؟

زيدان:

ـــ وإنت كنت هتسيبه واقف تحت الشجرة لحد ما يموت من الغيظ؟

بكر:

ـــ أنا اللي قلت من الأول إن الكلب ده ينزل. إنت بتكرر كلامي بصوت أعلى.

زيدان:

ـــ أنا بنفّذ. وإنتوا بتتكلموا.

منى:

ـــ مفيش أوامر لحد ما نتفق.

زيدان:

ـــ اتفقوا. وأنا واقف.

وقف عاصم بينهم، يقلّب عينيه من زيدان إلى بكر، ولا يتحرك.

بكر:

ـــ عاصم.

التفت عاصم.

بكر:

ـــ نزّله. وأنا اللي هقول إمتى يطلع.

ونظر عاصم إلى زيدان نظرة سريعة. ثم نزّل عبد الرحمن، ومضى الباقي خلفه.

وبقيت الصفوف البيضاء واقفة في مكأنها، لا يمسها أحد.

ثم ابتسم زيدان لمنى ابتسامة جانبية.

زيدان:

ـــ ده بعد إذن الماما منى، ملكة البدروم.

منى:

ـــ ملكة؟ أنا ما عنديش مملكة. أنا عندي بنات.

أما زيدان فلم يسمعها. كان قد رأى عيناً أخرى تنظر إليه من خلف كتف منى.

كأنت عين نوران. لم تصرخ ولم تخفض. نظرت إليه نظرة طويلة هادئة، كأنها تقول إنها ما نسيت شيئاً.

ولأول مرة منذ زمن، أخفض زيدان عينيه قبل أن تخفض عينها.

وفجأة وجد زيدان نفسه يتحرك، دون أن يقرر، نحو الممر، نحو غرفة البابا، حيث يرقد التليفون الأسود على المكتب كحيوان نائم.

منى:

ـــ رايح فين؟

زيدان:

ـــ أشوف حاجة.

منى:

ـــ هتشوفها بعدين. محتاجاكم هنا كلكم.

ثم رفعت صوتها إلى الساحة:

ـــ لازم دلوقتي نظبّط مين ها ينام في إيه. إحنا عددنا بقي الضعف.

وفي تلك اللحظة أنتفضت فاتن.

لم تكن حركة؛ كأن أحداً سكب على ظهرها ماءً بارداً. نهضت من بين الصغار على ركبتيها، ثم على قدميها، وعيناها اتسعتا على شيء لا يراه أحد.

فاتن صرخت:

ـــ العيانين يا منى. العيانين!

نظرت منى إلى نوران نظرة واحدة. ثم جرت البنات كلهن في اتجاه العنبر، وفاتن في المقدمة، وسعيد من خلفهم بخطوات بطيئة، مترددة، كمن يعرف الطريق ولا يريد أن يصل.

كان الباب مقفولاً.

زيدان:

ـــ المفتاح مع إبراهيم.

زهرة:

ـــ هو خده. كان في حزامه.

منى (لبكر):

ـــ اكسره.

أحضر بكر مطرقة من الصناديق، وضرب القفل ثلاثاً، حتى انفتح.

وجاء الريح قبل أي شيء محملة برائحة تعفين.

لم يقل أحد شيئاً. لم يحتج أحد أن يدخل ليعرف.

نوران (تضع كمّها على أنفها):

— لأ. لكن فاتن دخلت.

ضغطت بيدها على فمها، وتوقفت عند العتبة لحظة، ثم دخلت.



رأت صفين من الأسرّة، وتحت الأغطية البيضاء أشكالاً صغيرة لا تتحرك. وعلى الأرض بين الأسرّة أكواب فارغة،

مقلوبة، جافّة منذ زمن. وفي آخر العنبر، بجوار الباب الخلفي، حبل غسيل عليه ملابس لم يأتِ أحد ليأخذها

وعند الباب، على الأرض، ولد صغير ممدود على بطنه، إحدى ذراعيه مدسوسة تحت الباب إلى الجهة الأخرى، كأنه كان يحاول أن يصل إلى شيء.

ومشت إلى أقرب سرير، وكشفت الغطاء.

فاتن (بصوت لا يكاد يُسمع):

— نور.

وتركت الغطاء يسقط، ولم تقل شيئاً آخر.

ثم كشفت الثاني.

فاتن:

— مصطفى.

فاتن:

— حبيبة.

فاتن:

ـــ آدم.

ظلت تقول الأسماء، واحداً بعد آخر، بنفس الصوت. رحمة. يوسف. سلمى.

سبعة.

وخلفها، عند الباب، وقفوا جميعاً: بكر، ومنى، ونوران، وزيدان، وسعيد. وكان سعيد في آخرهم، ملتصقاً بالإطار، لا يدخل ولا يخرج.

بكر (بصوت مخنوق):

ـــ دول ماتوا من إمتى؟

منى:

ـــ من يومين. تلاتة على الأقل.

زهرة (من تحت ذراع منى، بصوت صغير جداً):

ـــ ماتوا من الجوع والعطش. مش من المرض.

التفت إليها الجميع.

بكر:

ـــ إنتي عرفتي منين؟

زهرة:

ـــ أنا شفت الكوز.

منى:

ـــ كوز إيه؟

زهرة:

ـــ بابا إبراهيم كان بيملّي كوز مية كل ليلة. ويحطه على الأرض قدام الباب. ومش بيدخل. كان بيقف بعيد، ويحط كمّه على مناخيره، ويقول كلام. وبعدين يمشي.

ولم يتحرك أحد.

زهرة:

ـــ وأنا كل فجر كنت أروح أبص. والكوز لسه مليان. زي ما هو. ومرة كان فيه دبانة ميتة.

عمّ الصمت العنبر، واشتد صوت قطرة ماء في مكان بعيد.

زيدان (فجأة، بصوت ممزق):

ـــ الكلب! أنا هقتل ابنه عبد الرحمن! هقتله!

وانطلق نحو الباب، لكن منى أمسكته من ذراعه بقوة لم يتوقعها منها.

منى:

ـــ وعبد الرحمن إيه ذنبه؟

زيدان:

ـــ ده ابنه!

فاتن (دون أن تلتفت):

ـــ بابا إبراهيم كان مانع الكل، بما فيهم عبد الرحمن، إنهم يروحوا ناحية العيانين.

بكر (بعصبية):

ـــ ما تسمّيهوش بابا إبراهيم! إنتي إيه، مش هتتعلمي أبداً؟

منى:

ـــ مش هي لوحدها اللي مش بتتعلم.

وتبادل بكر ومنى نظرة ثقيلة، ثم أدار بكر وجهه.

وانحنت فاتن فجأة، وتقيأت في الركن، دون أن تصدر أي صوت. ثم مسحت فمها بظهر كفها، ووقفت.

نوران (بحذر):

ـــ إنتي كويسة؟

فاتن:

ـــ الريحة.

فاتن:

ـــ ومش وقت خناق؟ ساعدوني ندفن إخواتنا.

منى (لنوران):

ـــ نوران. خدي إخواتك الصغيرين على العنابر. ما ينفعش يشوفوا الجثث.

نوران:

ـــ طب وبتوع السراج؟

فاتن:

ـــ مبقاش فيه بتوع الأمل وبتوع السراج. كلهم إخواتك. خديهم كلهم.

سعيد (من وراء الإطار):

ـــ الأماكن مش هتقضي يا فاتن.

التفتت إليه فاتن، وكان في وجهها شيء لم يره فيه أحد من قبل.

فاتن:

ـــ بس أسكت يا سعيد بقي! إنت عمرك ما كنت بتفكر، ولا بتساعد. مش بتتكلم غير عشان تقول مفيش أمل، مفيش فايدة، مفيش أماكن. مفيش، مفيش، مفيش. امشي يا سعيد.

وسكتت لحظة.

فاتن (لنوران):

ـــ نوران، اتصرفي. المهم ما يشوفوش الجثث.

ونظر إليها سعيد طويلاً، ولم يرد. ثم أدار وجهه ومشى.

بكر:

ـــ هو أنتوا بتدفنوا اللي بيموت فين؟

زيدان:

ـــ شيل معانا وتعالى ورايا. هتشوف.

منى:

ـــ لأ طبعاً. نحفر مقابر بعددهم الأول. وبعدين نيجي ناخدهم. يلا يا فاتن، نروح نساعد.

فاتن:

ـــ لأ. أنا هضمهم حضن أخير. وأبقى معاهم على ما تحفروا.

سعيد (من بعيد):

ـــ العدوى يا فاتن.

زيدان:

ـــ يلا يا سعيد. إنت ليه مصمم تتهزق؟

وفي قصر بعيد، على سطح مضاء بمصابيح كبيرة، جلس شيخون أمام التليفون، وإلى جواره كوب شاي برد.

لم يرن التليفون.

رفع السماعة، وأدار رقماً، وأنتظر.

سعداوي (من الطرف الآخر):

ـــ لسه ما كلمكش؟

شيخون:

ـــ لسه.

سعداوي:

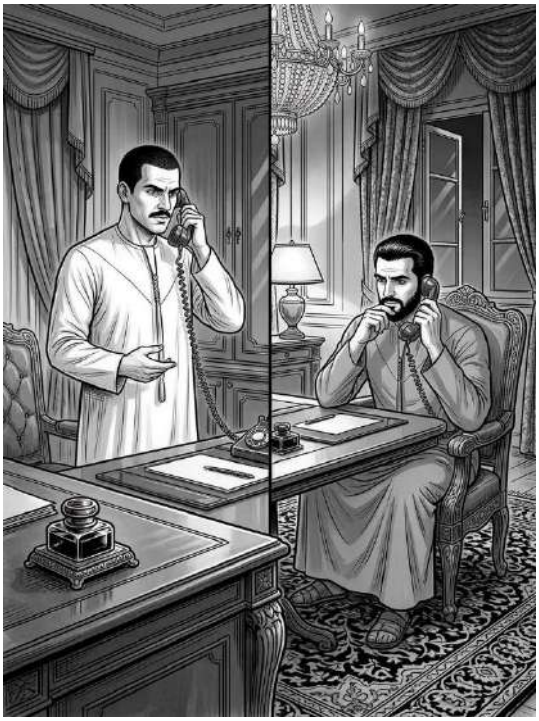
ـــ يبقى إما نجح وبيحتفل، أو فشل وبيستخبى.

شيخون:

ـــ أو نجح، ولسه مش عارف يكلمني متنساش إن بتوع البدروم وسعيد زمانهم حوليه.

سعداوي:

ـــ ده كمان ممكن بس أنت رأيك إيه اللي هيحصل.



شيخون (بعد صمت):

ـــ متقلقش الفوضى اللي عندهم محسوبة هننهيها في الوقت المناسب لمصلحة الشخص المناسب لينا.

ووضع السماعة، وقام ومشى على السطح ذهاباً وإياباً، ثم عاد وجلس أمام التليفون وحدّق فيه.

وفي الجنينة الخلفية لدار الأمل كأنت المجارف قليلة، فتبادلوها.

حفر المراهقين تحت ضوء مشعل واحد علّقوه على عمود. بكر على مجرفة، وزيدان على أخرى، وسعيد يزيح التراب بيديه، ومنى واقفة قريبة تنظر وتأمر.

بكر:

— الدار. هنديرها إزاي من بعد النهاردة؟ ده سؤال مش ممكن نستنى عليه الصبح.

زيدان (دون أن يرفع رأسه):

— لازم نشوف مين البابا. وخلاص.

سعيد:

— مش لازم بابا.

توقف بكر عن الحفر.

بكر:

ـــ إزاي مش لازم؟

سعيد:

ـــ أنا كنت عايش أنا وإخواتكم في الصحرا من غير بابا. وكنا بنتعاون. الحياة كأنت حلوة.

بكر:

ـــ حلوة؟ كنتوا بتاكلوا سمك زي الإبر وبتبنوا حيطان بتقع...

سعيد:

ـــ وكأنت بتقف.

منى:

ـــ خلّونا نفكر. مش بابا واحد. فكرة سعيد فيها حاجة نعم مجلس رئاسي يدير الدار.

بكر:

ـــ مجلس رئاسي؟ ده لعب عيال بقي. الدار محتاجة واحد قوي يعرف يقول لأ ويقول آه، ويتحمّل مسؤولية اللي قاله.

منى:

ـــ مجلس. من كل جهة واحد.

زيدان:

ـــ وأنا طبعاً واحد منهم.

منى:

ـــ ليه؟

زيدان:

ـــ عشان أنا اللي عارف الدار من جوه.

بكر:

ـــ وأنا اللي عارفها من تحت.

زيدان:

ـــ وده بيخلّيك تعرف الأرض اللي تحت الدار ولا تعرف الدار؟

منى:

ـــ كفاية. اللي له وزن يدخل. اللي ماسك ناس.

بكر:

ـــ أنا ماسك البدروم.

منى:

ـــ وأنا ماسكة البنات.

زيدان:

ـــ وأنا ماسك الدار.

سعيد:

ـــ وأنا ماسك إيه؟

بكر:

ـــ إنت ماسك الواحة. شوية عيال بيطبخوا؟

سكتوا لحظة، وعملت المجارف مرة أخري.

سعيد:

ـــ طب خلونا نخلص الدفن ويعدين نشوف الموضوع ده

سكتوا لحظة، وعملت المجارف مرة أخري.

أما فاتن فلم تخرج من العنبر الموتى.

جلست على الأرض بين السريرين الأولين، وسحبت إلى حجرها الأشكال الصغيرة واحداً بعد آخر، بعناية، كأنها تخشى أن توقظها.

أخذت حبيبة، ثم نور، ثم آدم. ولم تعد تشمّ الرائحة.

فاتن (همساً):

ـــ أنا آسفة.

ورأت خيالات أخواتها الأموات بين يديها وسمعت.

نور:

ـــ عطشانة.

فاتن:

ـــ إيه؟

نور:

ـــ الكوز فين؟

مصطفى (من سرير بعيد):

ـــ إنتي كنتي فين؟

فاتن:

ـــ كان ممنوع... هو قال إنه بيدخل لكم.

حبيبة:

ـــ إنتي مش رايحة، صح؟

فاتن:

ـــ لأ. أنا هنا.

آدم:

ـــ إنتي كنتي بتخيطي.

رحمة:

ـــ كان ممكن تقولي: مش هتجوز غير لما أشوفهم.

فاتن:

ـــ أنا وافقت عشأنكم.

يوسف:

ـــ إحنا ما طلبناش.

سلمى:

ـــ كنتي خايفة.

انحنت فاتن على الأشكال الصغيرة، ودفنت وجهها بينها، وأنهار صوتها.

فاتن:

ـــ أنا آسفة... أنا آسفة...

ولم تتحرك شفاه أي منهم.

كان العنبر ساكناً، لا يسمع فيه سوى قطرة ماء، والأنفاس المتقطعة لفتاة في السابعة عشرة تحتضن سبعة أجساد لا تردّ.

منى (من الباب، بصوت منخفض):

ـــ فاتن. الحفر خلص.

رفعت فاتن رأسها. نظرت حولها. ثم إلى منى.

فاتن:

ـــ كانوا بيكلموني.

لم تقل منى شيئاً. اقتربت، وجلست بجانبها على الأرض، ومدّت يدها وأخذت منها حبيبة برفق.

منى:

ـــ أنا معاكي.

حملوهم في أغطيتهم، واحداً واحداً، إلى آخر الجنينة.

لم يتكلم أحد. حملهم بكر، وزيدان، وعاصم، وسعيد أخيراً، بعد أن دفعته فاتن بنظرة.

ونزلوا بهم إلى حفر صغيرة متجاورة، وسوّوا التراب عليها بأيديهم، لأن المجارف لم تعد تكفي.

وقفت فاتن عند الأخيرة، وانحنت، ووضعت شيئاً على القبر. كأنت اللعبة القماشية الباهتة التي وجدتها تحت سرير سلمى.

زهرة:

ـــ هي هتصحي تلعب؟

فاتن:

ـــ لأ يا زهرة.

زهرة:

ـــ طب ليه بتحطيلها اللعبة؟

فاتن:

ـــ عشان ما تبقاش لوحدها.

وجلست زهرة بجانبها على التراب، ولم تقل شيئاً أكثر.

وعلى بعد خطوات كان سعيد واقفاً ويداه ملطختان بالتراب، يحدّق فيهما.

سعيد (دون أن يرفع رأسه):

ـــ أنا كنت لسه ماشي لما ده كله حصل.

زيدان (من وراء كتفه):

ـــ وأنا كنت قاعد.

سعيد:

ـــ إنت كنت قاعد وهما بيموتوا؟

زيدان:

ـــ وإنت كنت ماشي وهما بيموتوا.

نظر كل منهما إلى القبور الصغيرة، ثم إلى الآخر، ثم أدار وجهه.

سعيد:

ـــ أنت قلت لإبراهيم حاضر.

زيدان:

ـــ وأنت قلت لفاتن مفيش فايدة.

ولم يرد أحد منهما على ذلك.

وفي سجن النساء، على ضوء مصباح صغير، كان عبد الرحمن جالساً على الأرض، مكتّف اليدين، ووجهه إلى الجدار.

دخلت منى وفي يدها كوب ماء، ووضعته على الأرض أمامه.

منى:

ـــ اشرب.

عبد الرحمن:

ـــ مش هشرب من إيد فاجرة.

منى:

ـــ براحتك.

لم تتحرك. جلست أمامه على الأرض ونظرت إليه.

منى:

ـــ إنت عندك كام سنة؟

عبد الرحمن:

ـــ خمستاشر.

منى:

ـــ مين اللي علّمك تضرب؟

عبد الرحمن:

ـــ بابا.

منى:

ـــ وبابا فين؟

لم يرد.

منى:

ـــ اشرب، ما حدش هيموت عندي عطشان في الدار دي تاني.

وحين وصلت إلى الباب سمعت خلفها صوت الكوب يُرفع، ثم صوتاً مبحوحاً مكتوماً بين الجرعة والجرعة، كأن أحداً يبكي ويشرب معاً.

وفي عنبر الصغار كأنت نوران جالسة على الأرض، وحولها اثنا عشر طفلاً، بعضهم من أولاد السراج وبعضهم من أولاد الأمل. لم يكن أحد يتكلم.

طفل:

ـــ العيانين راحوا فين؟

نوران:

ـــ راحوا عند ربنا يا حبيبي.

طفل:

ـــ هيرجعوا؟

نوران:

ـــ لأ.

سكتوا.

أنس:

ـــ بابا إبراهيم قال هيدخل لهم.

نوران:

ـــ قال.

ولم تزد، ولم تكذب.

ومرت دقائق. ثم قالت بصوت خفيض:

نوران:

ـــ تعرفوا لعبة العصفورة؟

طفل (من السراج):

ـــ لأ طبعا. ده لعب.

نوران:

ـــ وماله العب؟

الطفل:

ـــ الشيخ حسن قال اللعب بيضيّع الوقت.

نوران:

ـــ والضحك؟

الطفل:

ـــ مقالش.

نوران:

ـــ يبقى مش حرام. اسمع.

العصفورة لو لقيت عش، تدخله. ولو ما لقيتش، تعمل عش بإيديها. مين فيكم يحب يعمل العصفورة؟

وبعد تردد طويل، رفع أنس يده.

أنس:

ـــ أنا.

نوران:

ـــ برافو يا أنس. حط إيديك كده.

خرجت من أحدهم ضحكة صغيرة، ثم سكت كأنه ارتكب خطأ. ثم ضحك آخر. ثم ثالث. ثم ارتفع صخب خافت من اثني عشر فماً. وضحكت نوران معهم، ولم تضحك هكذا منذ مدة تتذكرها.

وفي منتصف اللعب نظرت إلى الوجوه المستديرة حولها، وتوقف الضحك في صوتها.

نوران:

ـــ تعالوا نقعد بقي. عايزة أقولكم حاجة.

جلسوا في دائرة ضيقة.

نوران:

ـــ جسمكم ده بتاعكم.

نظر الأولاد إليها. لم يفهموا.

نوران:

ـــ محدش يلمسه من غير ما إنتوا تحبوا. ولو حد لمسكم وإنتوا مش عايزين، قولوا لأ. بصوت عالي. وتعالوا قولوا لي.

طفل:

ـــ حتى لو أخونا الكبير؟

نوران:

ـــ حتى لو أخوكم الكبير.

طفل آخر:

ـــ حتى لو بابا؟

سكتت نوران لحظة. وارتجفت أصابعها فقبضت عليها.

نوران:

ـــ حتى لو بابا. حتى لو أي حد. محدش أكبر من إنه يسمع كلمة لأ.

أنس:

ـــ وإنتي قولتي لحد قبل كدة لأ؟

ولم تقل نوران شيئاً. ابتسمت له وهزّت رأسها.

سكتت لحظة. ثم قالت دون أن تنظر إلى أحد:

ـــ أنا اتعلمت ده بالغالي.

لم يفهم الأولاد. لكن الصبي الجالس بجانبها وضع كفّه الصغيرة على كفّها دون كلمة.

مظبوط:

ـــ إنتي بتعيطي؟

نوران (تمسح وجهها بسرعة):

ـــ لأ. دي تراب.

مظبوط:

ـــ مفيش تراب هنا. الأرض كلها بلاط.

ضحكت نوران رغماً عنها:

ـــ إنت لازم تلامض كل حاجة يا مظبوط؟

نوران:

ـــ محدش. ها يلمس حد منكم طول ما أنا هنا. يلا، مين يعمل العصفورة تاني؟

ومن الباب المفتوح نصفاً مرّ ظل نحيل، ووقف.

عرفته نوران من وقفته: زيدان. لم تقل شيئاً. مدّت قدمها وأغلقت الباب بها.

وبعد الدفن نام الجميع حيث وقعوا.

لم يعد في الدار سرير لكل ولد. نام الأولاد في الممرات، وفي المطبخ، وتحت الأعمدة الرخامية، وعند عتبة غرفة البابا. اختلط أولاد السراج بأولاد الأمل في كل ركن، ولا يعرف أحد منهم أيّهم من أيّهم. ونام بعضهم في أحضان بعض.

مظبوط (يعدّ في الظلام، بصوت ناعس):

ـــ واحد وستين. اتنين وستين. تلاتة وستين...

سالم:

ـــ ما تعدّش.

مظبوط:

ـــ عشان لو حد ضاع.

سالم:

ـــ نام.

وفي الممر وقف زيدان عند باب غرفة البابا، وقبضته على الأكرة.

عاصم (من خلفه):

ـــ محتاج حاجة يا باشا؟

زيدان:

ـــ لأ. روح نام.

عاصم:

ـــ أنا مش نايم.

وبقي ظله في العتمة حتى طلع الفجر.

ومع أول ضوء اجتمعوا في غرفة البابا: بكر على الأريكة، ومنى على حافة المكتب، وزيدان واقف عند الباب، ينظر إلى التليفون كما ينظر إلى شيء ثمين سعيد يسند ظهره على الحائط.

بكر:

ـــ خلّونا نبدأ ها بقي مين هيدير الدار.

إحنا بقينا ضعف ما كنا. تحب نعمل استفتاء عام؟

سعيد:

ـــ مش كلهم. إحنا.

منى:

ـــ إحنا مين؟

سعيد:

ـــ إحنا الكبار. ومش نعمل مجلس. بكر ومنى وزيدان وفاتن وأنا. كل واحد فينا صوت.

نظرت إليه منى.

منى:

ـــ مجلس إيه أنا مفهمتش إمبارح.

سعيد:

ـــ مجلس إدارة. بدل البابا.

بكر:

ـــ وإحنا هنقعد في المجلس ده نعمل إيه؟

سعيد:

ـــ نقرر.

بكر:

ـــ ومين فينا اللي هيقرر؟

ضحكت منى ضحكة قصيرة، ثم أخفتها.

منى:

ـــ بصّوا. فكرة مجلس مش وحشة. بس المشكلة مش في المجلس. المشكلة في مين ها يدخله ومين هيبقى رئيسه.

بكر:

ـــ أنا اللي طلّعتكم من تحت. يعني أنا الشرعية.

منى:

ـــ وأنا اللي منعت العيال تنزل من غير ما أقول. يعني أنا اللي عملت النظام.

زيدان:

ـــ وأنا اللي فتحت لكم الباب. يعني أنا مصدر الشرعية والنظام والباب.

بكر:

ـــ إنت اللي رجعت من الأول بس.

وضحك سعيد، ضحكة قصيرة، خرجت منه فجأة.

سعيد:

ـــ وأنا اللي مشيت الأول. يعني أنا خارج المنافسة.

زيدان:

ـــ طب مجلس. بس بدون رئيس؟

منى:

ـــ لو من غير رئيس، كل قرار هيبقى خناقة.

سعيد:

ـــ رئاسة دورية. كل أسبوع واحد.

زيدان:

ـــ وأنا أول واحد.

بكر:

ـــ ليه إنت؟

زيدان:

ـــ لأني جاهز.

منى:

ـــ الترتيب بالقرعة.

بكر:

ـــ بالسن.

منى:

ـــ بالسن ولا بالأذى؟

لم يضحك أحد هذه المرة.

زيدان:

ـــ طب والقرارات؟ بالإجماع ولا بالأغلبية؟

منى:

ـــ بالأغلبية.

زيدان:

ـــ خمسة أصوات. تمام. بس لو فاتن مش قادرة تحضر الأيام الجاية؟ ولو حد غاب؟

سعيد:

— اللي يغيب ما لوش صوت.

بكر:

— لأ. اللي يغيب يوكّل غيره.

زيدان:

— يوكّل مين؟

بكر:

— أي حد.

منى:

— يعني الواحد فينا ممكن ييجي ومعاه صوتين.

بكر:

— وإنتي عندك مانع؟

منى:

ـــ عندي مانع يكون الصوتين دول بتوعك.

سكت بكر. ثم قال، وقد عاد فجأة إلى الجد:

بكر:

ـــ ومين اللي يحمي القرارات دي لو حد رفضها؟

منى:

ـــ الناس.

بكر:

ـــ الناس مش معاها عصيّ. عيالي معاهم.

منى:

ـــ يعني مجلس مدني بحماية العصيّ؟

سعيد:

ـــ مجلس مدني. من غير عصيّ. أنا ما قلتش تسلّموهم. قلت اللي يمسك العصاية يرجع للمجلس.

مرّت لحظة طويلة، لا يُسمع فيها إلا خفق الفؤوس.

بكر:

ـــ ممكن. لمدة محدودة.

زيدان:

ـــ شهر.

منى:

ـــ وبعد الشهر؟

زيدان:

ـــ هنشوف.

لم يردّ أحد.

منى:

ـــ نتفق بقي. الدار بعد النهارده ما هتمشي ازاي.

بكر:

ـــ امال احنا عملنا ايه ما احنا اتفقنا خلاص.

منى:

ـــ احنا اتفقنا على الفكرة. دلوقتي التفاصيل. القرارات بالأغلبية. واللي يغيب ما يعطّلش حد. ومن النهارده كل واحد له اختصاص، واللي له اختصاص مش بيتدخل في اختصاص التاني.

زيدان:

ـــ يعني نقسمها.

منى:

ـــ آه. أنا آخد جوه الدار. العنابر، وتقسيم الأماكن، ومتابعة العيال، واحد، واحد.

بكر:

ـــ وأنا الأمن. الباب والسور. وأي حد يحاول يدخل أو يخرج.

زيدان (بابتسامة صغيرة):

ـــ وأنا؟

منى:

ـــ إنت الخارج. إنت اللي كنت مع عبدون في الرحلة، وإنت اللي عارف الناس اللي برّة.

زيدان:

ـــ العلاقات الخارجية.

بكر:

ـــ الخارج والتليفون.

أخفى زيدان ما بوجهه، ونظر إلى أظافره.

بكر:

ـــ وفاتن وسعيد؟

منى:

ـــ أعضاء. من غير اختصاص.

ضحك بكر ضحكة خافتة:

ـــ وزراء من غير حقائب.

زيدان:

ـــ الحقيبة اللي كأنت مع عبدون كأنت كفاية.

ضحك الثلاثة، ثم سكتوا فجأة، كأن الضحك نفسه ارتكب خطأ.

زيدان:

ـــ طب نبدأ بإيه؟

منى:

ـــ بالأهم.

بكر:

ـــ الأكل.

منى:

ـــ الأكل. إحنا اتضاعفنا، ومخزن المطبخ فيه أكل يومين على أحسن تقدير لو الصغيرين ما أكلوش حصة كاملة.

بكر:

ـــ يعني المشكلة الأولى إزاي نجيب أكل لكل العيال دي.

منى:

ـــ وأي حاجة تانية بعدها.

وتذكّر زيدان، دون أن يريد، جملة قيلت له في الهاتف قبل ليلتين: اللي هيعرف ياكل ويعول اليتامى. ورفع رأسه.

زيدان:

ـــ الولاد اللي لنا العربية جابتهم من دار السراج المنير جابت معاهم ظروف في فلوس خده إبراهيم ومعتقدش لحق ياخده معاه وهو بيهرب كلنا ندور عليه.

كمان أنا ممكن أتصرف. لما كنت مع عبدون في الرحلة، قابلت ناس من دور الأيتام التانية. عارفيني. أقدر أطلب منهم، حتى لو سلفة، لحد ما نشوف هنعمل إيه.

بكر:

ـــ ده ممكن ياخد أيام. إحنا دلوقتي، حالاً، نتصرف إزاي؟ العيال هتنام جعانة الليلة.

منى:

ـــ زي ما سعيد كان بيتصرف. هو علّم الولاد هناك كل اللي اتعلمه.

بكر:

ـــ هيقولك مفيش فايدة.

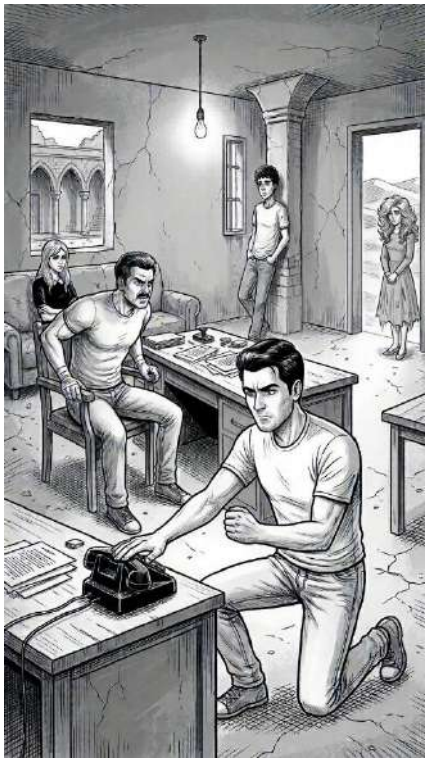
منى:

ـــ مش هيقول. وإن قال، هنسأل العيال اللي كأنت معاه. حتى مظبوط الصغير بيعرف يعدّ أحسن مننا.

لم يعلّق بكر. نظر إلى الصندوق الذي يجلس عليه، ثم إلى الكرسي الواقف في مكانه.

زيدان:

ـــ طب أكلّم الدور اللي أعرفها في التليفون.



بكر:

ـــ بس قدامنا.

زيدان:

ـــ طبعاً يا بكر.

ورفع السماعة السوداء، وأدار القرص رقماً رقماً، من الذاكرة، وعينا بكر ومنى على يده.

ثم جاء صوت من الطرف الآخر، ناعساً دافئاً كأنه رفع السماعة من فوق وسادة.

زيدان:

ـــ ألو؟ أيوه ...عم محمد الشيخ، أنا زيدان.

الفصل السابع
مسمار جحا

جلس زيدان إلى المكتب، والسماعة السوداء على أذنه، وبكر ومنى واقفان على جانبيه كحارسين.

زيدان (بصوت رسمي):

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا عم محمد. معاك زيدان. حضرتك بخير؟

جاء الصمت من الطرف الآخر. ثم قال شيخون ببطء:

شيخون:

— زيدان؟ إنت بتقولي "يا فندم"؟

زيدان:

ـــ أيوه يا فندم. أنا بكلم حضرتك من الدار، وإخواتي الكبار موجودين معايا.

شيخون:

ـــ آه.

وفهم شيخون. ولم يحتج إلى أكثر من ذلك.

شيخون (بصوت كمن يتثاءب):

ـــ اهلا يا زيدان يابني طمني عليك وعلى الدار سامعين أخبار مش حلوة طمني ايه اللي بيحصل عندكم؟

زيدان:

ـــ حضرتك، حصل يا فندم إن ضيف نزل علينا من الصحرا، راجل اسمه إبراهيم، وتولّى الدار فترة، وبعدين...

وفي تلك اللحظة، مدّ بكر يده وخطف السماعة، وأدارها بعيداً عن فم زيدان.

بكر (بهمس غاضب):

ـــ ما تحكيش كل حاجة للراجل ده. ركّز في الأكل بس.

أومأ زيدان، وأعاد يده ببطء، وأنتزع السماعة.

شيخون (من بعيد، مسموعاً):

ـــ إيه ده؟ مين اللي بيكلمك ده؟

زيدان:

ـــ لا ولا حد ده صوت الجنينة.

شيخون:

ـــ جنينة أه؟

زيدان:

ـــ إحنا بس يا فندم كنا محتاجين من حضرتك مساعدة في توفير أكل كام يوم.

شيخون:

ـــ وبعد الكام يوم، هتعملوا إيه؟

زيدان:

ـــ لسه هنشوف.

شيخون:

ـــ طب ومين اللي هيبقى البابا؟

زيدان:

ـــ إحنا عملنا مجلس ندير بيه الدار بشكل جماعي. أنا وإخواتي الكبار. حضرتك ما تعرفهمش.

شيخون:

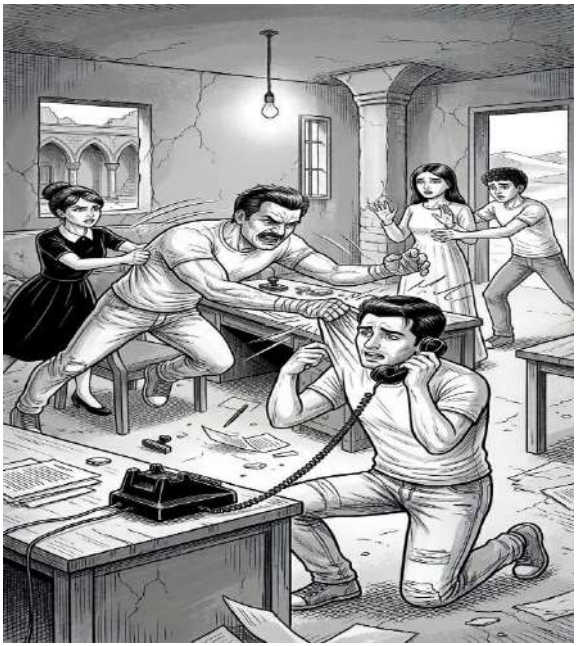
ـــ أيوه يعني أنا لما أجي أتفق معاكم، أتفق مع مين في المجلس مين رئيسه يعني؟

زيدان:

— معايا أنا يا فندم. أنا رئيس المجلس.

رفعت منى رأسها كمن لسعتها نحلة. وبكر خطا نحو المكتب خطوة واحدة.

ورفع زيدان كفه إليهما، مفتوحة: ثواني ثواني.



ودخلت فاتن من الباب، وفي يدها كوب شاي، ووراءها سعيد يتثاءب. وقفا عند العتبة.

سعيد (بصوت منخفض):

ـــ هو بيكلم مين؟

منى (بهمس):

ـــ سيب سعادة الرئيس يتكلم في هدوء.

ظل زيدان يستمع. جاء صوت شيخون طويلاً مسترسلاً، لا يُسمع منه إلا رنين مكتوم، وبكر يقف أمام المكتب كحيوان يتحفز، وقبضتاه تنفتحان وتنغلقان.

زيدان (في السماعة، بعد وقت طويل):

ـــ لأ طبعاً. الشجرة بتاعة حضرتك خلاص. تمام. اتفقنا. مش عارف أشكر حضرتك إزاي. هنستنى العربية الصبح.

وسكت لحظة، يستمع.

زيدان:

ـــ لأ طبعاً. هكلّم سعداوي وكل الناس وأطمّنهم. متقلقش.

وسكت ثانية، ثم ابتسم ابتسامة رسمية.

زيدان:

ـــ كل إخواتي كمان بيسلّموا عليك والله.

ووضع السماعة.

بكر:

ـــ رئيس المجلس؟

منى:

ـــ ازاي تقول على نفسك الرئيس واحنا لسه متفقناش؟

زيدان:

ـــ ده كلام قدام الراجل.

بكر:

ـــ قدام الراجل ولا قدامنا؟ إنت قلت "أنا رئيس المجلس" بصوت أعلى من صوتك لما قلت "حاضر" لإبراهيم.

زيدان:

ـــ وإنت كان صوتك أعلى لما قلت "أنا البابا" لعبدون، وكنت في بدروم.

انقضّ بكر على زيدان فتدحرجا فوق المكتب، وتساقطت الأوراق والمصحف والتليفون الأسود. وخلعت منى شبشبها وضربت به رأس زيدان من الخلف.

زيدان (من تحت بكر):

ـــ منى! إنتي كمان؟

منى:

ـــ أنا عضو المجلس. وإنت مش رئيسي.

فاتن (لسعيد، بصوت يقطع الصراخ):

ـــ إنت واقف تتفرج؟ حوّش معايا!

وبدا على سعيد ارتباك من يسمع اسمه في وسط معركة.

ثم دخل بين الأجساد، وأمسك ذراع بكر وسحبه، ومسكت فاتن بمنى من خصرها.

سعيد:

ـــ كفاية! كفاية! ده إيه ده؟ ده مكتب بابا!

بكر:

ـــ سيبني يا سعيد!

سعيد:

ـــ لأ! مش هسيبك اهدي بقي!

وجاء من الباب وقع أقدام صغيرة تجري. ثم رؤوس صغيرة: أنس، ومظبوط، وسالم، وثلاثة أطفال آخرون، ومن ورائهم نوران، واقفة عند الإطار تنظر إلى الجسدين المتشابكين بنظرة من رأى المشهد من قبل.

فاتن (تلتفت إليهم، وجهها محمرّ):

ـــ عاجبكم كده؟ اسكتوا بقى! العيال الصغيرة اتخضّت بسببكم!

ووقف كل شيء. بكر على الأرض ويده في شعر زيدان، ومنى عارية القدم، وزيدان ملتصق بالمكتب والدم في جانب شفته.

منى (تعدّل ثوبها، بصوت هادئ تماماً):

ـــ نوران، خدي إخواتك الصغيرين، العبي بيهم برة.

نوران:

ـــ حاضر.

قالتها وعيناها في عيني زيدان.

ولم تتحرك. ثم ضمّت الأطفال إلى صدرها، واستدارت، وعيناها لا تزالان تنظران إلى عينيه من فوق كتف فاتن، حتى اختفت في الممر.

وحاول زيدان أن يهرب بنظره إلى أي مكان آخر. إلى سقف الغرفة، إلى الصورة المعلقة، إلى الأرض. ولم ينجح.

ومن غرفة البابا انحدر صوت الشجار إلى البدروم، خافتاً، مكسوراً، متقطعاً.

وفي زنزانته الجديدة بين السلم والحائط، رفع عبد الرحمن رأسه.

عبد الرحمن (يهمس لنفسه):

ـــ بابا.

وأصغى عبد الرحمن:

ـــ بابا إبراهيم رجع. بابا رجع!

وارتفع صوته، يتلألأ كمن تذوّق الماء بعد عطش:

عبد الرحمن:

ـــ بابا رجع! الله أكبر ولله الحمد! الله أكبر ولله الحمد!

ونزل عاصم سالم البدروم بخطوات ثقيلة، ورأس منحني، ووقف أمام الزنزانة.

عبد الرحمن:

ـــ مش قلتلكم؟ مش قلتلكم آخرتكم قريبة أوي؟

الله أكبر ولله الحمد! الله أكبر ولله الحمد!

عاصم:

ـــ إنت عايش في وهم يا عبد الرحمن.

عبد الرحمن:

ـــ الله أكبر!

عاصم:

ـــ فوق. بابا إبراهيم بتاعك ده خلص وهرب وسابكم. والصوت ده ملوش علاقة بيه. ولا رجع.

عبد الرحمن:

ـــ ولله الحمد!

عاصم:

ـــ ولو رجع، هيجي جنبك هنا. وتهتفوا سوا.

وسكت عبد الرحمن لحظة. ثم قال بصوت أقل ثقة:

عبد الرحمن:

ـــ الله أكبر...

عاصم:

ـــ ولله الحمد.

وجلس عاصم على السلمة الأخيرة، ووضع رأسه بين يديه.

وفي الجنينة جلس الأطفال في دائرة حول نوران، وجوههم مشدودة.

طفل (صغير):

ـــ هما بيضربوا بعض ليه؟

طفل آخر:

ـــ هما مش إخوات؟ المفروض بنحب بعض.

نوران:

ـــ حتى الإخوات مش كلهم لازم يبقوا زي بعض. ومش كلهم لازم يبقوا طيبين. ممكن واحد منهم يطلع قذر، عشان نعرف إن الباقي كويس.

سكتت لحظة، ثم قالت كمن تخاطب نفسها:

نوران:

ـــ هو إحنا هنعرف الطعم الحلو من غير ما ندوق الوحش؟

طفل (من السراج):

ـــ وهو مين فيهم اللي طعمه وحش؟

سرحت نوران. لم تجب.

مظبوط (بنبرة من يشرح المسألة لأبله):

ـــ هي عايزة ذكاء يعني؟ أكيد زيدان. إنت مش بتشوف كل ما زيدان يظهر نوران بتبقى متعصبة إزاي؟

أنتبهت نوران فجأة، كمن سُئلت عمّا لم تقله.

نوران:

ـــ الأطفال اللي زيكم لازم بس يسألوا عن الطعم الحلو.

طفل:

ـــ ومين الطعم الحلو؟

نوران:

ـــ القمرات اللي قدامي. اللي عايزين يتباسوا دول.

وارتمت على الأرض، وجذبتهم كلهم إلى حضنها، وغطّتهم بالقبل، وسط ضجيج وصرخات وضحك مخنوق.

وفي المكتب أعاد سعيد المصحف إلى مكانه، ورفع التليفون، وسوّى الأوراق، كمن ينظّف مسرح جريمة لا يريد أن يعرف تفاصيلها.

فاتن (لبكر):

ـــ بلاش إيدك تسبق لسانك يا بكر. كل حاجة بتتحل بالكلام.

ثم التفتت إلى زيدان.

فاتن:

ـــ وإنت ليه قلت إنك رئيس المجلس، واحنا لسه ما اتفقناش مين الرئيس؟

زيدان:

ـــ يا فاتن إنتي مش...

منى (تقاطعه):

ـــ بيحطنا قدام الأمر الواقع. عم الصايع.

سعيد:

ـــ يا جماعة. ادّوه فرصة يشرح. إنت يا زيدان، قلت إنك الريس ليه؟

نظر سعيد إلى فاتن نظرة سريعة، كمن يقول: شفتي؟ أنا مش سلبي أهو.

زيدان:

ـــ عشان أنا عارف الناس دي. ما يهمهمش حاجة غير إن الدار تبقى مستقرة، وفي حد قوي قادر يسيطر.

بكر:

ـــ وإنت بقى القوي ده؟ ليه مش أنا؟

زيدان:

ـــ عشان هما ما يعرفوش مين بكر ده. ولو قلتلهم "بكر الريس" يبقى لازم بكر يكلمهم. وبكر ما يعرفش عنهم حاجة. ولو كلمهم، ما كنوش هيبعتوا ولا رغيف حاف حتي. فكنت مضطر أقول كده. مش إنتوا قلتوا أهم حاجة دلوقتي الأكل؟

سكتوا جميعاً. لم يجد أحد رداً.

منى (بعد وقت):

ـــ ماشي يا زيدان. بس ده قدام الأخ اللي كنت بتكلمه ده. إنما بعد ما ناخد الأكل، وبينا وبين بعض، مفيش الكلام ده.

زيدان:

ـــ ليه يا منى؟ مش المفروض نتفق؟ يمكن اتفاقنا يوصّلني لرئاسة المجلس.

بكر:

ـــ إنت بتحلم يا زيدان.

منى:

ـــ لأ. مش بيحلم. هو بيخطط.

سعيد:

ـــ بسيطة. يلا نقعد ونفكر ونتناقش ونتفق.

فاتن:

ـــ رغم إني مبسوطة يا سعيد إنك بتشارك معانا، ولو بالكلام بس... معلش، هقولك لأ. مفيش لا اتفاقات ولا خناقات لحد ما نشوف موضوع الأكل. بكرة نطمّن، وبعدين أي حاجة تانية.

سعيد:

ـــ عندك حق يا فاتن. أنا معاكي.

منى:

ـــ ريّح أنت يا سعيد.

منى:

ـــ ماشي يا فاتن، هنسمع كلامك في دي. بس في موضوع تاني عايزة أسأل عليه.

وأدارت وجهها إلى زيدان:

منى:

ـــ واضح إن وإحنا في البدروم حصلت مصايب. إيه موضوع الشجرة اللي كنت بتتكلم عنه يا زيدان؟ وبتقول إنها بتاعة محمد الشيخ؟

زيدان:

ـــ مفيش. شجرة الكافور اللي في الجنينة. عبدون كان باعها له من زمان. وفاتن وسعيد كانوا حاضرين كل حاجة.

بكر:

ـــ باعها إزاي يعني؟ هييجي يشيلها من جذورها ويمشي؟

نظر الجميع إلى بعضهم. وتوترت فاتن.

فاتن:

ـــ لأ. هو هياخد محصولها بس. وهي هنا. وهو اللي هيبعت السماد والمبيدات وكل اللي يخلّيها شجرة جميلة. واللي يراعيها من عندنا هياخد مرتب.

منى:

ـــ آه. زي حدوتة مسمار جحا.

وسكتت لحظة، ثم هزّت رأسها.

منى:

ـــ لأ. دي حدوتة تخوّف.

منى (لزيدان):

ـــ عارفة إنك ما تعرفهاش. هابقى أحكيهالك بعد الاجتماع.

بكر:

ـــ طب والفلوس اللي باعها بيها؟

زيدان:

ـــ عبدون خد كل حاجة وهرب.

بكر:

ـــ خلاص. قوله: فلوسك مع عبدون، وشجرتنا معانا. ملكش حاجة.

زيدان:

ـــ من غير ما نقول هو رد وقال: أنا شاريها من الدار، مش من عبدون.

وأضاف، بصوت أخفض:

زيدان:

ـــ وأقولك المصيبة كمان. عبدون استلف فلوس من ناس كتير، واشترى عربية اسمها ملكة الصحرا غالية أوي، وهرب بيها. والحاجة الوحيدة اللي سابها هي المونة اللي هتتبني بيها أوضة البابا الجديدة. وشوية الشجر البلاستيك.

منى:

ـــ طب ويحصل إيه لو قلنا الدار مفيهاش فلوس، ومش هنعرف نسدد حاجة لحد؟

سعيد:

ـــ بسيطة. هنعيش معزولين عن العالم. لا حد هيبيع لنا ولا يشتري مننا.

بكر:

ـــ وإيه يعني؟ مش عايزين حاجة من العالم برة.

فاتن:

ـــ وناكل ونشرب إزاي؟

بكر:

ـــ زي ما البابا كان ماشيها.

زيدان:

ـــ مهو البابا للأسف كان ماشيها كده.

منى:

ـــ طب زي ما سعيد كان بيدير الواحة بتاعته: نصطاد.

فاتن:

ـــ لو اعتمدنا على سعيد، يبقى بنعرّض كل إخواتنا للخطر.

ولم يعلق سعيد. ابتلع ريقه.

فاتن:

ـــ خلاص يا جماعة، نقفل كل حاجة دلوقتي. وخلّينا ندوّر في المطبخ والمخزن والبدروم وكل حتة، على أي حاجة ننفع نصبّر بيها بطون إخواتنا لحد الصبح.

بكر:

ـــ يلا يا فاتن.

منى:

ـــ زيدان، بعد الأكل عايزين نقعد تاني في الجنينة. اجتماع مش رسمي. تحكيلنا كل اللي حصل في فترة عبدون، وفين الشجر الباقي، وإيه حكاية الشجر البلاستيك، والعربيات، والحاجات الكبيرة دي.

بكر:

ـــ أنا رأيي البنات وسعيد يدوّروا على أكل، وأنا وزيدان نفضل هنا ندور عن ظرف الكفالات بتاع إبراهيم اللي اتكلم عنه إمبارح.

منى:

ـــ اتفقنا.

وتفرقوا.

في المخزن، فتحت منى صناديق، وفاتن فتحت خزانات، وسعيد يسحب أكياساً من تحت أرفف لم يمسّها أحد منذ زمن. وكانوا يعملون صامتين.

سعيد (دون أن يرفع رأسه):

ـــ أنا آسف.

منى:

ـــ على إيه؟

سعيد:

ـــ على كل حاجة.

منى:

ـــ ذنبك يا سعيد في المصايب دي كان أكبر ذنب. مش عشان عملت حاجة. عشان ما عملتش حاجة.

منى:

ـــ إنت أكتر واحد فينا فاهم ومثقف. وكنت، أكتر حد الأطفال بيحبوه. عندك تأثير قوي علي الكل. بس دايماً بتيجي في المواقف المهمة أوي وتبقى مش موجود.

سعيد:

ـــ أنا بحاول والله. وإن شاء الله المستقبل هيبقى مختلف. وإيدي في إيدكم، نرجّع كل حاجة أحسن من الأول.

فاتن:

ـــ أنا يا سعيد عمري ما زعلت منك. انا زعلت عليك اكتر. أنا اتقهرت يوم أحلام ما ماتت. وفقدت كل ثقة فيك.

ولم يقل سعيد شيئاً. فتح ذراعيه، وضمّ الفتاتين إليه، ودمعوا ثلاثتهم.

سعيد (بعد لحظة، يسحب نفسه ويمسح عينيه):

ـــ لأ، لأ، لأ. إحنا هنفضل نتدلّع والعيال جعانة.

ونظر سعيد إلى فاتن مبتسماً:

ـــ مش عايزين يا هوانم الكلام ده. يلا، دوّروا على الأكل. أنا هطبخ لكم بإيدي.

منى:

ـــ الله الله. وده من إمتى ده؟

سعيد:

ـــ من يوم ما رجعت من الواحة. من دلوقتي.

وفي غرفة البابا، تحت الشبابيك المكسورة، كان بكر وزيدان ينبشان الأدراج.

بكر (بصوت منخفض مشحون):

ـــ لقيت حاجة؟

زيدان:

ـــ لأ.

بكر:

ـــ طبعاً لأ.

زيدان:

ـــ إنت بتقصد إيه؟

بكر:

ـــ بقصد إن واحد زيك لو لقى ظرف مليان فلوس، مش هيقول وها يخبيه.

زيدان:

ـــ وواحد زيك بقي لو لقى الظرف هينزل يقسمه علي العيال مثلا.

بكر:

ـــ انا عمري ما وثقت في كلامك أنت مخبي الظرف يا زيدان صح؟

زيدان:

ـــاللي كان هيحبس عيال صغيرة في البدروم الصبح ما يتكلمش عن الأمانة.

بكر:

ـــ عبدون هو اللي حبسنا إحنا.

زيدان:

ـــ وأنت ايه مقدرتش علي عبدون وجي تعمل جدا عليا أنا.

وارتجف وجه بكر.

بكر:

ـــ اسمع...

ولم يكمل. لأن أصواتاً غريبة بدأت ترتفع من الجنينة.

وكان سعيد قد وجد شوالاً كاملاً من المكرونة والأرز في آخر المخزن.

فاتن:

ـــ وفي شوية مجمدات في الفريزر. صلاحيتها قربت تخلص.

منى:

ـــ بينا على المطبخ.

سعيد:

ـــ بيكم أنتوا؟ أنا عندي مشوار الأول. يلا من هنا، واسمعوا كلام القائد بتاعكم. الشيف سعيد.

وخرج على السلم المواجه للجنينة، ووقف على السلمة العليا، ورفع يديه:

سعيد:

ـــ يا ولاد! كله يجمع!

جاءوا من كل ركن. وتجمّعوا أمام السلم في مجموعتين: أولاد دار الأمل على اليمين، وأولاد السراج المنير على الشمال، بينهما مسافة خالية كخندق.

سعيد:

ـــ لا لا لا. مش عايز أشوف المنظر ده تاني.

إحنا كلنا واحد دلوقتي. كلنا إخوات. مش عايز كل مجموعة لوحدها. يلا اتلغبطوا في بعض! واحضنوا بعض! وقفولي صفوف!

واللي مش هشوفه مش بيضحك في الصف، هعاقبه بحضن يكتم نفسه. يلا!

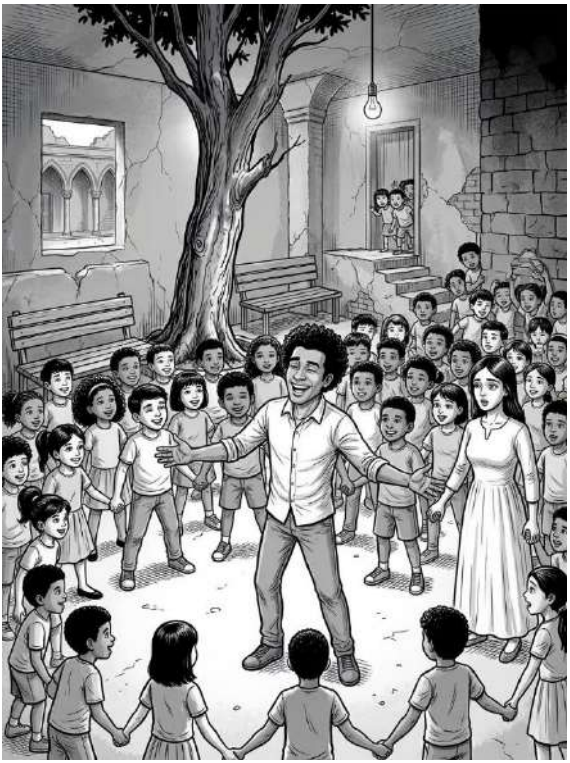
ونظر إلى نوران، التي وقفت على الحافة.

سعيد:

ـــ يلا يا ميس نوران!

وجرى الأطفال، يتلغبطون في بعضهم، يتخبطون، يتعانقون، ينفجرون ضحكاً.

ونزل سعيد في وسطهم، يُقبّل رؤوسهم، ويرفع واحداً ويضع آخر، ويحيط نوران بذراعه، وحولهما حلقة من الأطفال تضمّهما.



سعيد:

ـــ طب مكافأة بقى على شوية الدلع ده. مش عايزين تاكلوا؟

الأطفال:

ـــ عايزين!

سعيد:

ـــ هنقولها كلنا بصوت عالي. أعلى من المظاهرات. عايزين ناكل... عايزين ناكل! ونجري على المطبخ نعمل كلنا الأكل!

وارتفع الهتاف.

الأطفال (بصوت يهز الجدران):

ـــ عايزين ناكل! عايزين ناكل! عايزين ناكل!

وسمعه بكر وزيدان وهما في غرفة البابا، فتوقفا عن الشجار، ونظر كل منهما إلى الآخر نظرة من يعرف أن الصراخ أقوى منه.

ودخل سعيد المطبخ، ومعه نوران وأكثر من أربعين طفلاً.

منى (تضحك):

ـــ يخرب دماغك يا سعيد! إحنا عايزينك إيجابي، آه، بس مش أوي كده!

ونظرت إلى الأطفال:

منى:

ـــ يلا برة يا عم إنت وهي. الأكل هيخلص ونندّه لكل واحد ياخد طبقه.

سعيد:

ـــ كله يثبت مكانه! قولوا وراي: مش هنمشي هما يمشوا!

الأطفال:

ـــ مش هنمشي... هما يمشوا!

سعيد:

ـــ هما يمشوا!

الأطفال:

ـــ هما يمشوا!

ورفعت فاتن، وكأنت قد لبست مريلة الطبخ، مغرفة في وجه سعيد مازحة. فضحك سعيد وأعطاها ظهره، وهتف:

سعيد:

ـــ عايزين ناكل!

وسحب الأطفال وراءه إلى الخارج، وهم يهتفون.

وبقيت فاتن ومنى وحدهما في المطبخ، على النار.

وكأنت عينا فاتن مدمعتين.

منى (تضع يدها على كتفها):

ـــ مالك يا فتون؟ إيه؟ نسيتي كنت بدلّعك بإيه زمان؟ إنتي يا بنتي لسه لما تفرحي بتعيطي؟

فاتن:

ـــ لأ يا منى. أنا بعيّط على اللي ماتوا من المرض. واللي ماتوا من الجوع. بعيّط على الجثث اللي كأنت بتلعب معانا، ودلوقتي بنفرح من غيرها.

منى:

ـــ كلنا مقهورين عليهم. بس العيال الصغيرة اللي مش فاهمة ذنبها إيه لا يفرحوا واحنا اللي لازم نفرحهم...

فاتن:

ـــ مهو عشان كده حبست دموعي، لحد ما المجنون سعيد خدهم وخرج.

منى:

ـــ ازعلي عليهم يا فاتن. هما يستاهلوا نزعل عليهم.

بس حاولي تفرحي برضه. عشان هما زمانهم فرحانين في الجنة بفرحتنا دي.

وشمّتا في اللحظة نفسها.

منى:

ـــ ريحة إيه دي؟

فاتن:

ـــ يا نهارنا أسود! الأكل بيتحرق!

وضحكتا. ضحكة من القلب، ضحكة لم تضحكاها منذ أعوام، ثم عادتا إلى الطبخ.

فاتن (وهما تقلبان):

ـــ مني لو حد سأل ليه الأكل اتحرق هنقول سعيد السبب.

منى:

ـــ أيوة سعيد السبب!

وانفجرتا ضحكاً.

وبعد قليل نادت منى:

منى:

ـــ ولا يا رخم! إنت! تعالى!

وجاء مظبوط، وقف في الباب، يدس يديه في جيبيه.

مظبوط:

ـــ أنا مش بروح لحد ببلاش.

منى:

ـــ إيه المقابل اللي عايزه؟

مظبوط:

ـــ نوران اخترعت عملة اسمها الحب. شوفي يلا، تحبيني إزاي. أجيلك وأعملك اللي عايزاه.

منى:

ـــ مفيش حبك ومفيش زفت!

ورفعت الشبشب في الهواء، على باع ذراعها، كما كأنت تفعل أمهات السبعينات.

وجاء سعيد جرياً حين رآه:

سعيد:

ـــ أيوه يا منى! تحت أمرك؟

منى (تضحك):

ـــ ما كان من الأول. عموماً تعالى يا عم، خد حب وبوس وأحضان للصبح.

وتحولت إلى مظبوط وأضافت:

منى:

ـــ وتطلع لنوران. وسعيد، قولهم: محدش يجي ياخد أطباق. إحنا كلنا هناكل في الجنينة.

الحلل الثقيلة الكبار يشيلوها، والصغيرين يجوا ياخدوا الكبايات والمعالق والأطباق.

ثم التفتت إلى زهرة، التي كأنت واقفة في الباب تعدّ الحصى.

منى:

ـــ زهرة. روحي نادي بكر وزيدان. وقوليلهم فاتن بتقولكم يلا، الأكل دلوقتي في الجنينة.

زهرة:

ـــ حاضر.

اقتربت زهرة من غرفة البابا فسمعت صوتاً منخفضاً.

وقفت، ثم جرّت كرسي الأطفال الخاص بها، وصعدت عليه، وقرّبت عينها من ثقب في كرتونة «بسكو مصر» التي كأنت تغطي زجاج النافذة المكسور.

رأت بكر يُسقط زيدان على المكتب، وقبضته على قميصه.

بكر:

ـــ الفلوس فين يا زيدان؟ إنت أكيد متفق مع عبدون!

وأنتفضت زهرة. وانقلب الكرسي. وسقطت على الأرض بصوت عالٍ.

وانفتح الباب بعنف.

زهرة (وهي على الأرض، تنظر إلى بكر):

ـــ هو إنت بتضرب زيدان ليه؟

زيدان (يمسح فمه، مبتسماً):

ـــ لأ يا زهرة يا حبيبتي. ده بيعلّمني ضربة جديدة.

زهرة:

ـــ وبيقولك "عبدون" ليه؟

زيدان:

ـــ زهرة! عيب! ما تتسنطيش على حد وهو بيتكلم.

وسكت لحظة.

زيدان:

ـــ وعموماً يا ستي، بيقولي "عبدون" عشان عبدون هو اللي كان معلّمه الضربة دي زمان.

وكأنت زهرة لم تفهم شيئاً. لكنها حفظت المشهد في رأسها، كما حفظت مشاهد كثيرة.

وجلسوا كلهم في الجنينة.

على الأرض، في دائرة واسعة حول الحلل الكبيرة، الكبار في الوسط والصغار في الأطراف، وأطباق قديمة متفرقة من أحجام مختلفة، ومعالق لا تتطابق. وفي ضوء المغرب بدا الجميع لأول مرة منذ أسابيع كأنهم يعيشون في مكان واحد.

وجلست نوران في مواجهة زيدان تماماً.

لم ترفع عينيها عنه. ولم يستطع هو أن يرفع عينيه عنها. كان يتظاهر بأنه يهتم بالطعام، وبالأطفال، وبأي شيء، ثم يرتد بنظره إليها ليرى أنها لم تتحرك.

مظبوط (للأطفال، بصوت عالٍ):

ـــ شفتوا بقى لما قلتلكم إن الوحش اللي بتتكلم عنه نوران هو زيدان؟ أهو أول ما جه اتحوّلت.

زيدان:

ـــ وحش إزاي؟ إنتي بتحكيلهم إيه يا نورا؟

نوران:

ـــ ايه البجاحة دي إنت كمان بتدلّعني؟ اسمي ما يجيش على لسانك القذر.

فاتن (تحاول إسكاتها):

ـــ نوران، ما ينفعش الكلام ده قدام الصغيرين.

لكنها فشلت.

منى (تتدخل بحزم):

ـــ نوران، خلاص. بعد الأكل الكبار هيقعدوا معاكي ونشوف إيه المشكلة. بس دلوقتي يلا كلوا.

وسكت زيدان. ثم أومأ.

منى:

ـــ أيوه كده. ما يجيبها غير الماما منى.

زيدان (يبرطم):

ـــ أيوه أيوه يا ماما، عندك حق. مهو ناقصني إنتي كمان.

ثم تململ في جلسته. نظر إلى نوران، ثم إلى الطبق، ثم وقف.

زيدان:

ـــ انا قايم داخل الحمام.

ودخل المبنى، وسار في الممر، ولم يتجه إلى الحمام.

دخل غرفة البابا، وأغلق الباب وراءه. جثا إلى جانب المكتب وسحب من تحت لوح الخشب المفكوك زجاجة صغيرة، لم يمسها منذ أن خبأها هنا بعد المعركة خوفاً من التفتيش.

وقف لحظة، يتأملها. ثم دسّها في جيبه الداخلي.

وعاد إلى الجنينة، وهو يمسك بطنه.

زيدان:

ـــ معدتي وجعاني. مش هقدر آكل.

أنس (من مكانه، دون أن يرفع رأسه):

ـــ براحتك يا عم. بس الغايب ملوش نايب.

زيدان:

ـــ مبقاش الا إنت يا شبر ونص! يلا خلّص وتعالى بسرعة، عشان نلعب كورة.

وجلس على الأرض بالقرب من الكرة الجلدية القديمة، وصوّب إلى طفل صغير، ثم ركلها فجأة عمداً، فمرّت قرب رأس نوران وارتطمت بحلة.

زيدان:

ـــ أوبس!

وقام يركض نحو الكرة. وتعثّر، متعمداً، عند أقدام نوران. واندفع جسمه نحو طفل كان يحمل طبقاً، فوقع الطبق، ووقع الطفل، وانفجر الصراخ.

أنس:

ـــ أكلي!

طفل آخر:

ـــ هو اللي وقعني!

فاتن:

ـــ يا نهارك أسود!

وفي الصخب، في اللغبطة، في تلك الثانية التي نظر فيها كل شيء إلى كل شيء، مال زيدان فوق طبق نوران، وأمال شيئاً صغيراً فوقه، وسحب يده.

زيدان:

ـــ أنا آسف! آسف! الله! مش قصدي!

ولم ير أحد ما فعل. إلا زهرة.

كأنت زهرة تنظر إليه من فوق الباب الحديدي، مستندة إلى الحديد، تعدّ الحصى. رأت يده تمتد، ورأتها تنسحب، ولم تفهم ما حدث، ولم تفهم لماذا.

فاتن:

ـــ يا زيدان! مفيش لعب غير بعد الأكل!

زيدان:

ـــ لأ. لو كده يبقى أرجع آكل تاني.

وجلس إلى الطعام. وأخذ ملعقة. ثم رفع عينيه إلى نوران، بعين المنتصر، الشامت.

ورأتها نوران. وأخذت ملعقتها.

وبعد الأكل، أخذ سعيد الكرة من الأرض، ورفعها فوق رأسه:

سعيد:

ـــ يلا يا صيادين السمك!

هللّ الأطفال كلهم، وجروا نحوه، ولعبوا. لعبوا حتى أنهكهم التعب، وهم يتبادلون الكرة ويصرخون.

ونوران جلست جانباً، تضع يدها على بطنها.

فاتن:

ـــ مالك يا نوران؟

منى:

ـــ عشان بقالنا كتير مش بناكل. والهانم أكيد أتافست. وأكلت كتير مرة واحدة.

وضحكتا. وضحكت نوران ضحكة باهتة، أضعف من الأولى.

فاتن:

ـــ أنا هدخل أريّح شوية.

أما زيدان، فتركهم يلعبون، ومشى وحده.

كان في رأسه صباح الغد، والعربية، وشيخون، ووجه بكر، ووجه نوران، وسؤال لا جواب له. وكأنت قدماه تحملانه من تلقاء نفسهما إلى الجنينة الخلفية، حيث القبور الجديدة وحيث لا أحد.

ولمحه بكر من بعيد، فسحب نفسه وراءه، خلف الأعمدة، بلا صوت، دون أن يراهما طفل.

وفي الجنينة الخلفية، بين التراب الطري، وقف زيدان. وجاء الصوت من خلفه:

بكر:

ـــ طبعاً. جاي تدفن ظرف الفلوس يا حرامي.

زيدان (يلتفت):

ـــ هي وصلت لكده؟

بكر:

ـــ وريني جيوبك.

زيدان:

ـــ لأ.

بكر:

ـــ وريني!

وتقدم بكر. ومدّ يده إلى جيب زيدان. فدفعه زيدان.

زيدان:

ـــ ابعد إيدك!

بكر:

— بتخبي إيه؟

زيدان:

— ابعد مبخبيش حاجة!

وتشابكا. ضربة، ثم أخرى. وكان بكر أثقل، لكن زيدان أسرع.

ركله في ركبته. فرد بكر بلكمة. دفعه زيدان بكل ما فيه.

وتراجع بكر خطوتين، وتعثر بحجر، وسقط إلى الخلف.

وارتطم رأسه بحجر كبير.

لم يكن صوت الارتطام عالياً. كان صوتاً قصيراً، جافاً.

وبقي بكر ممدداً، لا يتحرك، ويده على الأرض.

زيدان (وهو يلهث):

— قوم.

لم يتحرك.

زيدان:

ـــ قوم يا بكر. قوم. ما تعملش كده.

رأى بقعة داكنة تنتشر في التراب تحت رأس بكر، بطيئة، صامتة، تأخذ حيزها.

ثم تراجع خطوة. ثم أخرى. ونظر حوله: الجنينة الخلفية، والأعمدة، والفراغ.

ثم جرى.

جرى عائداً إلى الجنينة الأمامية، وأخذ يمسح يديه في جلبابه، ويسوّي أنفاسه، ويضبط وجهه. وبعد ثوانٍ كان يقف بين الأطفال، يضحك، ويلعب صيادين السمك مع أخوته.

زيدان:

ـــ أنا السمكة الكبيرة! يلا حاولوا تصطادوني!

ولكن عينه كأنت تذهب، من دون أن يريد، إلى المدخل الخلفي للجنينة.

وهناك رأى منى.

كأنت واقفة عند الباب، لا يعرف أحد إن كأنت داخلة أم خارجة. وجهها لا يقول شيئاً.

وأنتقل زيدان بسرعة، بخفة لاعب شاطر:

زيدان (بصوت عالٍ، للأطفال):

ـــ يا ولاد، الحقوا! منى سايبانا ومش بتلعب معانا! وجاية من الجنينة الخلفية! قالت يعني كده هتستريح من صداعنا! يلا ورايا! عايزين منى! عايزين منى!

الأطفال:

ـــ عايزين منى! عايزين منى!

وانطلقوا نحوها. أمسكوا بيدها وبثوبها ورفعوها، وضحكت.

منى:

ـــ لأ لأ لأ! سيبوني! أنا كبيرة علي الفرهدة دي!

وضحكت. وجرّوها إلى منتصف الساحة، ولعبت معهم.

وأخذ زيدان وسعيد يرميان الأطفال في الهواء بعضهم لبعض.

منى:

ـــ بلاش لعب الولاد الخطر ده!

سعيد:

ـــ ده مش خطر! ده تدريب على الحياة!

واستمر اللعب. وكان الضوء يخفت.

ومن بين الأعمدة جاء صوت فاتن، قبل أن تظهر:

فاتن:

ـــ حد شاف بكر؟

ثم مشت نحو الجنينة الخلفية.

ووقف زيدان في وسط الأطفال، ويده على كتف طفل، وابتسامته ثابتة.

وجاء الصراخ. لم يكن يشبه صراخ فاتن. كان صوتاً خرج من مكان أعمق.



فاتن (من بعيد):

— بكر بكر بكر!

بكر! الحقوني! الحقوني!

الفصل الثامن
مجلس رئاسي

جاء الصراخ من آخر الجنينة فحوّل اللعب إلى ركض.

تُركت الكرة في مكانها. جرى الأطفال، وجرى سعيد، وجرى زيدان في المؤخرة، بعد أن تأكد أن الجميع يراه يجري.

وفي الجنينة الخلفية كأنت فاتن على ركبتيها، ورأس بكر على فخذها، تضرب خدّه ضربات خفيفة متتالية.

فاتن:

— بكر! بكر، فوق! قوم! بكر!

لم يفق. وتحت رأسه كأنت بقعة التراب قد صارت بركة داكنة، تعكس الضوء الأخير من السماء.

وصل الأطفال أولاً، ثم وقفوا.

وسقط الصمت لحظة، ثم بدأ أحدهم يبكي، ثم اثنان، ثم صارت الجنينة كلها ترتجف بنشيج صغير متواصل. وأنس اختفى وجهه في ثوب مظبوط، ومظبوط يحدّق في الجثة بعينين متسعتين لا ترمشان.

ووصلت منى، وتوقفت. لم تتقدم ولم تتراجع. وقفت كما يقف الأعمى على طرف سلم.

وجاء زيدان بعدها، ووجهه مشدود، وفكّه يرتجف.

زيدان (بغضب مصطنع):

ـــ يا لهوي! بكر؟ إيه اللي حصل؟ مين عمل كده؟

وسعيد وقف عند الأعمدة، لا يعرف أين يضع يديه.

منى (بصوت ذاهل):

ـــ كله يدخل على سريره. حالاً.

لم يتحرك أحد.

منى:

ـــ قلت كله يدخل!

ظلوا واقفين. يبكون، ويحاولون أن يطلّوا على الجثة بعيون مرعوبة، ولا يريدون أن يروا.

منى (تصرخ):

ـــ نوران! نوران!

لم يرد أحد.

منى:

ـــ نوران!

وبقي الصمت.

منى (بصوت شرس):

ـــ نوران! أنتي فين!

وأدارت وجهها بعنف نحو سعيد:

منى:

ـــ إنت واقف تتفرج؟ دخّلهم جوه!

وارتجف سعيد، وجمع الأطفال بذراعيه، واحداً واحداً، كما يجمع الفلاح ما سقط من الأكياس.

سعيد:

ـــ يلا يا ولاد. يلا، تعالوا معايا. تعالوا. مفيش حاجة. تعالوا.

مظبوط (وهو يُساق، بصوت صغير):

ـــ إحنا كنا بنلعب.

سعيد:

ـــ أيوه يا حبيبي هنلعب بس مش دلوقتي.

وساقهم إلى الداخل.

وفي الممر وقف سعيد عند عنبر الأولاد، ووزّعهم داخله، وحثّهم على الاستلقاء، وغطّى بعضهم بيده، وهو يتحدث بصوت لا يعرف من أين يأتيه.

ثم مرّ أمام عنبر البنات. كان الباب مغلقاً.

وقف. طرق الباب.

سعيد:

— نوران؟

لم يجبه أحد.

سعيد:

— نوران، يا بنتي. إنتي فين؟ تعالي. في مصيبة.

ولم يرد أحد.

وأدار الأكرة. وفتح.

وفي الجنينة الخلفية كأنت فاتن تحمل رأس بكر على ركبتيها، وتبكي بكاء من لا يعرف أنه يبكي. ومنى واقفة فوقهما، لا تتحرك.

وزيدان يمشي حول الجثة بخطى ثقيلة، يهز رأسه، ويتصنع الحزن والغضب معاً بكفاءة لم تكن موجودة في ملامحه من قبل.

زيدان:

ـــ هو أصلاً كان بيعمل إيه في الجنينة الخلفية؟

التفتت إليه منى ببطء.

منى:

ـــ ممكن...

وفي تلك اللحظة، من داخل الدار، من العنابر، جاء صوت.

صوت سعيد. لا يشبه صوته.

سعيد (من بعيد):

— نوران... نوران يا نوران... لأ. اصحي. اصحي! الحقوني! نوران ماتت! نوران ماتت!

وسكت كل شيء.

ثم جروا.

جرت فاتن أولاً، ووضعت رأس بكر على الأرض بحرص كمن يضع كوباً، وانطلقت. وجرى زيدان. أما منى فتقدمت خطوتين، وثلاثاً، ثم اهتزت.

ورأت الأرض تميل.

ولم تصرخ. لم تقل شيئاً. تفتت ركبتاها وسقطت على العشب، على جانبها، ورأسها نحو الجثة، ويدها مفتوحة كأنها تريد أن تمسك شيئاً.

وكان الأطفال الصغار واقفين عند باب عنبر البنات، متلاصقين، يسدّونه بأجسامهم، لا يدخلون ولا يخرجون.

فاتن (تدفعهم برفق، بصوت لا يقبل الجدال):

ـــ وسّعوا يا حبايبي. وسّعوا لفاتن.

وانفتح الصف عن طريق ضيق. ودخلت.

رأت سعيد جالساً على الأرض، على ركبتيه، وفي حجره جسد نوران، رأسها على ذراعه، وعيناها نصف مفتوحتين تنظران إلى سقف لا يراه أحد.

وكان سعيد يهتز.

يهتز إلى الأمام وإلى الخلف، ببطء، بإيقاع منتظم، وفمه يتحرك بلا صوت. ثم بصوت:

سعيد:

ـــ نوران... نوران... نوران...

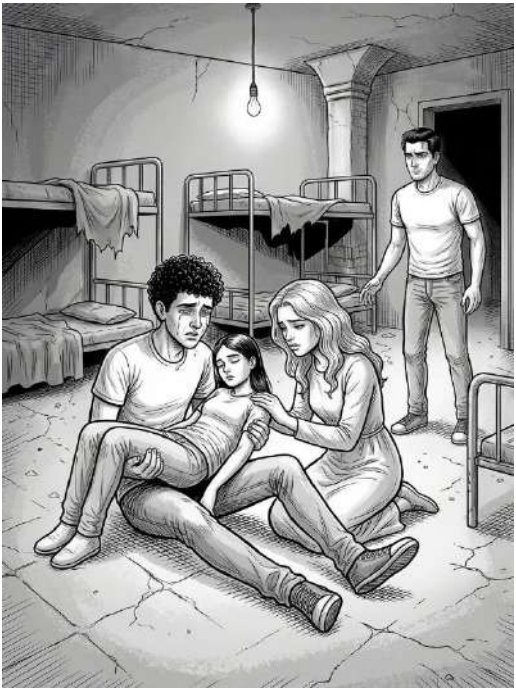
وبدا للحظة كأنه قد شطّ عقله كله، وبقي هذا الجزء منه وحده، يهزّ ويردد.

فاتن (تركع بجواره):

— سعيد إيه اللي حصل.

سعيد:

— نوران.



فاتن:

— سعيد، بصّ لي.

سعيد:

— نوران يا فاتن. نوران.

ومدّت فاتن يدها ولمست جبين نوران. كان بارداً. أقفلت عيون نوران بكفها.

ولم تقل شيئاً. جلست بجوارهما على الأرض، ومدّت ذراعها حول كتفي سعيد، وهزّت معه.

وفي الجنينة الخلفية بقي ثلاثة: بكر الميت، ومنى المغمى عليها، وزيدان يتوسط الجسدين.

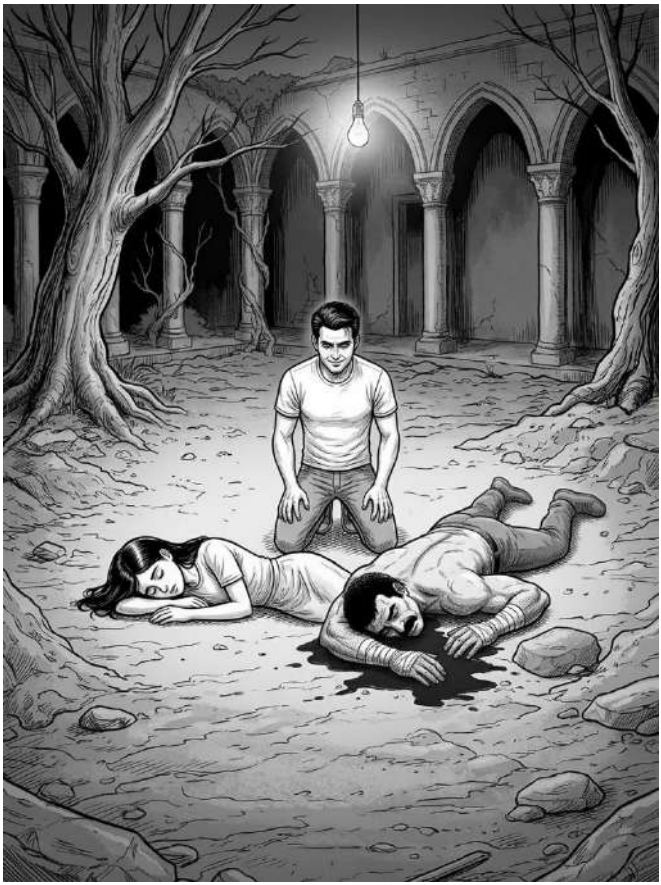
كان قد جرى مع الآخرين نصف الطريق، ثم عاد.

ركع بجوار منى. رفع رأسها برفق، ووضعه على ركبته، وسوّى خصلة من شعرها عن وجهها، كمن يعتني بدمية يخشى أن يكسرها.

ثم نظر إلى بكر.

زيدان (لبكر، بنبرة عتاب هادئ):

— إنت اللي غلطان يا بكر.



زيدان:

ـــ إنت السبب في اللي وصّلنا له ده. أنا اللي طلّعتك من السجن. أنا اللي حاربت إبراهيم، واستحملت ده كله. عشان تيجي إنت تعمل ريّس عليا؟ وبدل ما تقولّي شكراً، تتهمني إني حرامي؟

وضحك ضحكة قصيرة، كأن شيئاً ما حقاً مضحك.

زيدان:

ـــ حرامي إيه يا عبيط! ده ظرف فيه ملاليم!

زيدان:

ـــ طبعاً. مهو إنت ما تعرفش يعني إيه فلوس. ولا دخلت قصور. ولا ركبت عربيات يا بني. كل اللي إحنا فيه ده ولا حاجة. الفلوس كتير وجاية. جاية جاية. إنت بس اللي كنت مستعجل.

ثم أخفض صوته، ونظر إلى وجه بكر.

زيدان:

ـــ كنت بتقول "أنا البابا". والله كنت هسيبك تقولها. ما كانش فارق معايا. كنت هسيبك تقولها لحد ما تزهق.

وسكت. ومسح فمه بظهر يده، دون أن ينتبه إلى أنه يمسحه.

زيدان:

ـــ إنت ما كنتش وحش على فكرة يا بكر. بس كنت غبي. وده أسوأ.

زيدان:

ـــ فاكر لما كنت بنزل لك الأكل وإنت بتقولي "حضرة النايب"؟ كنت بكره الكلمة دي. بكرهها. وبعدين بقيت مستنيها.

وسكت. ثم أضاف بصوت أقل ثقة:

زيدان:

ـــ أنا آسف.

ثم، بسرعة:

زيدان:

ـــ لأ. مش آسف. انا مالي اللي قتلك مني.

وبعد لحظة:

زيدان:

ـــ آسف.

ثم التفت إلى منى، وبصوت أخف، أقرب إلى الحنان:

زيدان:

ـــ وإنتي يا ستي. فرحانة أوي وإنتي بتقولي: أنا الماما. تعرفي يا بت إن انا كنت معجب بيكي؟

ضحك.

زيدان:

ـــ بس نقول إيه. إنتي اللي عينك كأنت بتشوف كل الناس ما عدا أنا. وكنتي عاملة زي المغناطيس: بتسحبي ناحيتك أي حد بيكرهني. حتى نوران. الله يرحمها.

وسكت.

زيدان:

ـــ آه. أنا نسيت أقولك. أنا عملت زيك.

وانحنى على وجهها قليلاً، كمن يهمس لها بسر.

زيدان:

ـــ إنتي قتلتي بكر. وأنا قتلت نوران.

وتحرك جفن منى.

جفن واحد، رمشة صغيرة جداً، لا تكاد تُرى.

ورآها زيدان. وجمد.

ثم ابتسم.

زيدان:

ـــ بصي. فوقي براحتك. خدي صدماتك على مهلك زي ما إنتي عايزة. على ما أخلّص حوار كده، وأرجعلك.

وأنزل رأسها على العشب بحذر، ووقف، ونفض ركبتيه.

وعيناها مغمضتان.

وسار نحو مبنى الدار، وهو يصيح بنبرة حزن مجروح، يملأ الجنينة:

زيدان:

ـــ يا فاااتن!

دخل عنبر البنات.

وجد فاتن منهارة على الأرض، وسعيد بجوارها، ونوران على رجليه، ميتة.

زيدان:

ـــ إيه اللي حصل؟

سعيد (بصوت أجوف):

ـــ نورا ماتت.

زيدان:

ـــ ازاي؟

سعيد:

ـــ لوحدها. زي ما إنت شايف.

فاتن (بين شهقاتها):

ـــ هي كأنت تعبانة. قالت هتدخل تريّح، عشان التعب ده.

ركع زيدان بجوارهم، ووضع كفه على كتف فاتن.

زيدان:

ـــ اجمدي يا فاتن. عشان باقي الأطفال دول اتعلقوا بيها أوي.

وهمس:

ـــ روحي هدّيهم. وشوفي منى، أنا فوّقتها بس لسه قاعدة في الجنينة الخلفية. ويلا يا سعيد، ندفن أختك. روح إنت احفر، واندهلي أجيبها وأجي.

ونظر إليهما حتى وقفا، وخرجا. فاتن تمشي كمن نسيت ساقيها، وسعيد يتبعها كمن يُسحب.

وبقي زيدان وحده مع نوران.

ظل واقفاً لحظة. ثم ركع بجوارها.

لم يلمسها. نظر إليها فقط، ثم نظر بعيداً، ثم نظر إليها.

زيدان (بصوت منخفض جداً):

ـــ طول عمرك قمر يا نورا.

وضحك ضحكة بلا صوت.

زيدان:

ـــكنتي مش عايزاني أدلّعك وأندهلك باسمك؟ أهو أنا بدلّعك أهو.

وغصب عنك كمان.

وسكت قليلاً.

زيدان:

ـــ نورا. تعرفي إن إنتي وبكر في حاجات كتير مشتركة؟

زيدان:

ـــ إنكم أنتوا الاتنين بتكرهوني. وأنتوا الاتنين موتوا على إيدي. وأنتوا الاتنين موتوا تقريباً في نفس اللحظة.

ورفع إصبعاً، كمن يحصي.

زيدان:

ـــ والأهم، إنكم أنتوا الاتنين أغبية.

وارتجف صوته قليلاً، ثم استعاد نفسه.

زيدان:

ـــ ايوة اغبياء فيها إيه يعني لو كنتي نسيتي اللي فات؟

مكنتش مقصودة. بقى ولا مش مقصودة، هتفضلي طول عمرك ماسكاها عليا. خلاص يعني. كنتي تعدّي. كان زمانك عايشة.

وسكت. وبقيت يده معلقة في الهواء، لا تعرف إلى أين.

زيدان:

ـــ أقولك حاجة يا بت؟

وأنزل يده.

زيدان:

ـــ أنا همشي من قدامك. عشان لو فضلت واقف أكتر من كده، ضميري هيوجعني إني قتلتك. أمشي أحسن.

ثم تردد، وغطّى وجهها بطرف الغطاء. ثم رفعه. ثم غطّاه مرة أخرى.

زيدان:

ـــ الله يرحمك.

زيدان:

ـــ أنا ما كنتش عايز... لأ. كنت عايز. بس ما كنتش متخيل إنه هيبقى بالهدوء ده.

ثم نظر حوله ليتأكد أن لا أحد في العنبر. ولم ير أحداً.

وسكت. ثم، بصوت أكثر انخفاضاً، وهو ينهض:

زيدان:

ـــ أقولك حاجة قبل ما أمشي؟

وتوقف عند الباب، وظهره إليها.

زيدان:

ـــ شكراً.

زيدان:

ـــ أنا ما كنتش لاقي حد أجرّب عليه سم شيخون، عشان أتأكد إنه صادق معايا. وإنتي ساعدتني.

ولم ينظر خلفه.

زيدان:

ـــ يلا. سلام بقى. ولما الأهبل سعيد يخلّص حفر، أجي أوصلك بنفسي.

وخرج.

وفي أحد اركان الغرفة كأنت زهرة تختبئ خوفا، لم يرها أحد، قد غطّت أذنيها بكفيها منذ أن دخل. ثم رفعت إحداهما قليلاً قليلاً.

وخرج زيدان إلى الجنينة، فوجد فاتن تحتضن منى، التي استعادت وعيها وأخذت تبكي بحرقة على كتفها. وسعيد في الجهة الأخرى يحفر، بمجرفة وحيدة، في تراب الجنينة الخلفية.

سعيد (حين رآه، دون أن يرفع رأسه):

ـــ تعالى احفر معايا. مكان لبكر.

زيدان:

ـــ ما كفاية حفرة واحدة للاتنين؟

سعيد:

ـــ بيتهيألي حرام. مينفعش.

زيدان (بعد لحظة، بنبرة من تذكر شيئاً):

ـــ آه صح. وبعدين نوران أنا اللي هنزّلها بنفسي. دي أقل حاجة.

وارتفعت منى من حضن فاتن كالنابض.

منى:

ـــ محدش هيلمسها تاني. خلاص راحت مش هيبقى عايشة وميته يا زيدان.

لم يقهم سعيد أو فاتن ما قالته مني

ابتسم زيدان، ولم يكن في ابتسامته فرح.

زيدان:

ـــ أهلاً. أنا كنت متأكد إنك هتعملي كده.

فاتن:

ـــ قصدك إيه يا زيدان؟

لم يرد.

سعيد:

ـــ ما تقول يا زيدان كل اللي عايز تقوله مره واحدة هي ناقصة.

زيدان:

ـــ نوران ماشي. ماتت في سريرها، طبيعي.

لكن بكر؟ إنتوا مش شايفين (وهو ينظر لمني) إن حد ضربه؟

وساد صمت قصير.

سعيد:

ـــ مين يقدر يضرب بكر؟ ويضربه ليه أصلاً؟

لكن منى كأنت قد التفتت إلى زيدان.

منى:

ـــ إنت بتقول إيه؟

زيدان:

ـــ أنا بسأل.

وانطلقت منى نحوه، وقد أنتفخت أصابعها كأنها تريد أن تمزق شيئاً.

منى:

ـــ يا قذر! إيه اللي بتقوله ده؟!

وتشبثت بها فاتن، ووضعت يدها على فمها.

فاتن (بحزم):

ـــ مش وقته.

وكأنت منى تتلوى، تحاول أن تفلت منها لتضرب زيدان.

وابتعد زيدان خطوتين، ووجّه كلامه لسعيد وحده، بهدوء يشبه الحيرة:

زيدان:

ـــ تقتله عشان الهانم شايفة نفسها الماما. وكأنت مرتبة تخلص منا إحنا الاتنين، بالضرب، بالقتل، بالتشويه. عايزة تحكم الدار زي ما كأنت حاكمة أوضة ضلمة في البدروم.

وصرخت فاتن.

فاتن:

ـــ بس بقى! احترموا التراب اللي واقفين عليه! ده اللي بيحضن جثث إخواتكم!

وسكت الجميع.

ظلت منى تتنفس بصوت مسموع. وسعيد يحدق في فاتن كأنه يراها أول مرة.

وزيدان ينظر إلى الأرض، بوجه حزين، متواضع، ممتلئ بالبراءة.

سعيد (بصوت أجش):

ـــ طيب. ساعدني يا زيدان ننزّل بكر.

فاتن (لمنى، بحنان صارم):

ـــ أنا هروح أشيل نوران وأجيبها. تعالي معايا يا منى ساعديني.

وجاءت فاتن ومنى بنوران وحدهما.

كأنت منى تحمل رأسها، وفاتن قدميها، ولم يقل أحد من الرجلين كلمة.

ودفنوهما.

بكر في الحفرة الكبيرة، ونوران في الحفرة الصغيرة المجاورة، وبين القبرين كومة تراب صغيرة، كأن الأرض لم تقرر بعد إن كأنت تفرّق بينهما.

سعيد:

ـــ وبعدين؟

لم يجب أحد.

فاتن:

ـــ الله يرحمك يا بكر. كنت تقيل. وعنيد. وكنت دايماً بتقول "أنا". ولما كل الناس سكتت، إنت ما سكتّش.

ولم تقل منى شيئاً. اقتربت من القبر الصغير، وجثت، ولمست التراب بأصابعها.

منى:

ـــ كنتي أشجع مننا كلنا يا نوران. وإحنا ما كناش نستاهلك.

ووقف زيدان بعيداً، ويداه خلف ظهره. ولم يقل شيئاً.

وكأنت عيناه على القبر الصغير. وحين التفت إليه سعيد، أشاح بوجهه.

وجلسوا في غرفة البابا على الأرض: فاتن، ومنى، وسعيد، وزيدان. لا أحد يتحرك. والتليفون الأسود صامت على المكتب.

سعيد:

ـــ هنعمل إيه؟

فاتن:

ـــ ولا حاجة. خلّونا في الأكل اللي جاي الصبح.

زيدان:

ـــ لأ يا فاتن. أنا مش معاكي. لأول مرة يعني.

فاتن:

ـــ يعني إيه؟

زيدان:

ـــ يعني لازم نعرف مين اللي عمل كدة في بكر.

نظر الجميع إلى بعضهم. وبقي السؤال معلقاً بينهم.

فاتن:

ـــ يا سعيد. ممكن تسأل إنت كل الناس وتحقق وتحاول تعرف؟

سعيد:

ـــ أنا؟

فاتن:

ـــ إنت يا سعيد.

زيدان:

ـــ ومن ناحيتي، متقلقوش على موضوع الأكل الصبح. أنا مرتّب كل حاجة.

ووقفت فاتن، ثم تعثرت، وكادت تسقط. أمسكت بها منى، وسندتها، وخرجتا.

وعند الزير في آخر الممر، كأنت فاتن تبكي بحرقة، دون صوت، دموع تسيل على وجهها بلا توقف.

وسحبت منى من يدها إلى الماء.

فاتن:

ـــ منى اغسلي وشك.

منى:

ـــ إيه؟

فاتن:

ـــ اغسلي وشك. واضحكي. غصب عنك. ولو بالكدب.

منى:

ـــ أضحك؟

فاتن:

ـــ الولاد الصغيرين النهاردة شافوا منظر صعب. زمانهم مرعوبين. وكل واحدة فينا تنام في عنبر مع مجموعة، وتطمنهم. يلا. اضحكي.

وأخذت منى حفنة ماء ورمتها على وجهها، ثم أخرى. ومسحت عينيها بظهر يدها، ونظرت إلى فاتن.

منى:

ـــ إنتي إمتى وإزاي بقيتي قوية كده يا فاتن؟

فاتن:

ـــ مش عارفة يا منى. يمكن بعد موت أحلام.

ولم تقل منى شيئاً.

فاتن:

ـــ يلا. خشّي للولاد. وقولي لهم بكر وقع واتخبط. وبلاش الكلام العبيط اللي قاله زيدان.

ودخلت منى عنبر البنات الصغيرات.

كنّ جالسات على أسرّتهن، متقاربات، عيونهن حمراء.

وحين دخلت رفعن رؤوسهن كلهن معاً، وكأنهن ينتظرن منها شيئاً ما.

بنت صغيرة (من الصف الأول):

ـــ بكر مات؟

منى:

— أيوه.

بنت أخرى:

— ونوران؟

سكتت منى لحظة.

منى:

— أيوه.

بنت صغيرة:

— هما راحوا فين؟

منى:

— تحت التراب. بيناموا.

بنت:

— ومش هيصحوا؟

منى:

ـــ لأ.

بنت:

ـــ ليه؟

منى:

ـــ عشان كده.

بنت:

ـــ يعني ايه مش هنشوفهم تاني.

منى (تجلس على حافة السرير، بصوت ساخر مرهق):

ـــ لأ مش هنشوفهم تاني.

بنت:

ـــ بكر كان بيخوّف.

منى:

ـــ كان. بس كان بيخاف علينا.

بنت:

ـــ ونوران كأنت بتلعب معانا.

منى:

ـــ أه. وكأنت بتغش في العصفورة.

وضحكت إحداهن. ثم أخرى. ثم سكتوا خوفاً

منى:

ـــ نوران كأنت بتحب الضحك. فمن حقكم تضحكوا. ومن حقكم تعيطوا. ومن حقكم تعملوا الاتنين مع بعض، زيي كده.

بنت:

ـــ إنتي بتعيطي؟

منى:

ـــ لأ. دي حساسية.

بنت:

ـــ من إيه؟

منى:

ـــ من الغباء.

وضحكوا كلهم.

واستلقت منى على حافة السرير، بينهن، وهي تتكلم، وتحكي لهن عن الشبشب الأسطوري الذي لا يخطئ هدفه، وعن أمهاتنا التي كأنت تلقيه من آخر الممر.

منى (بصوت ينخفض):

ـــ وكأنت الأم بتصيب. كأنت دايماً بتصيب. حتى لو إنتي ما كنتيش...

ولم تكمل.

وكأنت قد نامت، رأسها على الوسادة، وفمها نصف مفتوح، وأصابعها ما زالت تقبض على حافة الغطاء.

ونامت البنات حولها، واحدة بعد أخرى، كأنهن يسقطن في بئر دافئة.

وفي عنبر الأولاد الصغار كأنت فاتن جالسة على الأرض بين الأسرّة، والأطفال حولها في دائرة، وأنس في حجرها.

أنس:

ـــ بكر راح فين؟

فاتن:

ـــ راح مكان حلو يا حبيبي.

أنس:

ـــ فين؟

فاتن:

ـــ الجنة.

أنس:

ـــ وفيها لعب؟

فاتن:

ـــ أه. فيها لعب كتير.

طفل:

ـــ وفيها أكل؟

فاتن:

ـــ وفيها أكل كتير أوي.

طفل آخر:

ـــ وفيها بابا إبراهيم؟

فكرت فاتن.

فاتن:

ـــ لأ.

وضحك الأطفال.

أنس:

ـــ ونوران راحت معاه؟

فاتن:

ـــ أه. راحت. وهتلعب مع بكر.

أنس:

ـــ بكر ما يعرفش يلعب.

فاتن:

ـــ هتعلّمه.

طفل:

ـــ هو الموت بيوجّع؟

سكتت فاتن. ثم قالت بصوت منخفض:

فاتن:

ـــ لأ. الموت ما بيوجّعش اللي. اللي بيتوجع هو اللي بيفضل.

أنس:

ـــ يعني إنتي بتتوجعي؟

فاتن:

ـــ شوية.

أنس:

ـــ شوية قد إيه؟

فاتن:

ـــ قد... قد كل النجوم اللي فوق.

ونظر الأطفال إلى السقف، حيث لا نجوم.

أنس:

ـــ هما كتير.

فاتن:

ـــ أه. كتير.

ولفّت ذراعها حول أنس، وأخذت تدندن بنغمة بلا كلمات، نغمة بسيطة كأنت تسمعها من أحلام. وكان صوتها ينكسر ثم يعود.

وفي منتصف النغمة، غرقت.

نامت. رأسها على السرير، وذراعها حول أنس، والنغمة باقية على شفتيها كظل.

ونام الأطفال حولها، متلاصقين، يتنفسون معاً.

مظبوط (في الظلام، بصوت ناعس):

ـــ تسعة وخمسين. كنا واحد وستين.

سالم:

ـــ ما تعدّش.

مظبوط:

ـــ ناقصين اتنين.

ولم يرد أحد.

وفي البدروم، في الزنزانة التي بين السلم والحائط، كان عبد الرحمن قد توقف عن الهتاف منذ ساعات.

ونزل عاصم السلم، بخطوات بطيئة.

عبد الرحمن (من الظلام):

ـــ الدار هادية.

عاصم:

ـــ أيوه.

عبد الرحمن:

ـــ ليه؟

وتردد عاصم.

عاصم:

ـــ بكر مات.

وطال السكوت.

عبد الرحمن:

ـــ مات؟

عاصم:

ـــ وقع واتخبط.

عبد الرحمن:

ـــ الله يرحمه.

وصمت.

عبد الرحمن:

ـــ هو اللي ضربني بالقلم.

عاصم:

ـــ أه.

عبد الرحمن:

ـــ وأنا كنت هقتله.

عاصم:

ـــ عارف.

عبد الرحمن:

ـــ ربنا مش بيسيب حق حد وعند الله تجتمع الخصوم.

وسكت عاصم.

عبد الرحمن:

ـــ هو بكر وقع من نفسه؟

عاصم:

ـــ بيقولوا.

عبد الرحمن:

ـــ في ناس بتقع من نفسها. وفي ناس بتتوقّع.

ولم يرد عاصم. جلس على السلمة الأخيرة، وظل جالساً حتى الفجر.

وفي غرفة البابا، على الأرض، كان سعيد جالساً مسنداً ظهره إلى الحائط، وزيدان جالساً أمامه، وبينهما شمعة وحيدة.

زيدان:

ـــ لازم يبقى فيه عدل يا سعيد.

سعيد:

ـــ عدل، أه عارفه.

زيدان:

ـــ اللي عمل كده في بكر، بكرة هيعمل كده في غيره.

سعيد:

ـــ أنا مش متأكد إن حد عمل حاجة.

زيدان:

ـــ أنا متأكد.

سعيد:

ـــ إنت دايماً متأكد.

زيدان:

ـــ عشان إنت دايماً مش متأكد. وده الفرق بينا.

وضحك سعيد ضحكة قصيرة، ثم أعاد وجهه إلى الجدية.

زيدان:

ـــ ولو ما عرفناش مين، يبقى بنعرّض الكل للخطر. الصغيرين. فاتن. إنت.

سعيد:

ـــ أنا؟

زيدان:

ـــ أنت أكتر واحد فينا بريء.

سعيد:

ـــ إزاي؟

زيدان:

ـــ عشان إنت ما كنتش موجود.

ونظر سعيد إليه نظرة طويلة.

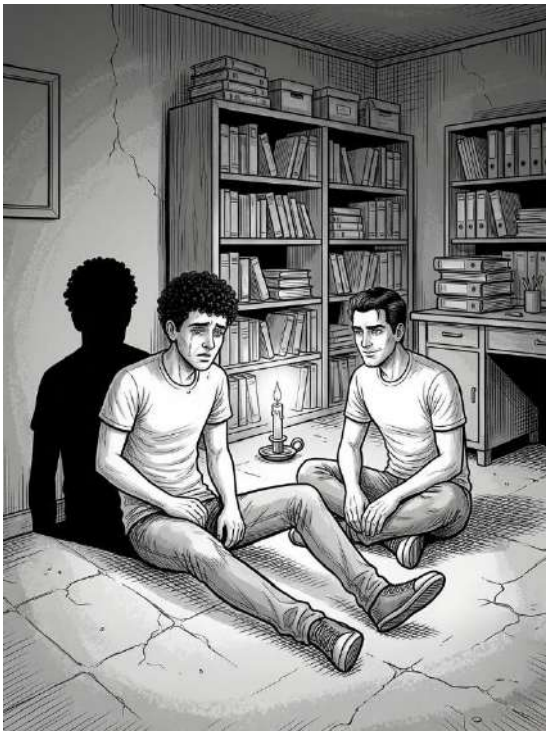
سعيد:

ـــ يعني أول مرة غيابي يفيدنا.

زيدان:

ـــ أول مرة.

ومضت لحظة، ضحك فيها الاثنان ضحكاً خافتاً، ثم توقفا فجأة، كأنهما تذكّرا.



زيدان:

ـــ ابدأ بالأسئلة. مين شاف بكر آخر مرة؟ مين كان في الجنينة الخلفية؟ ومين جه منها؟

سعيد:

ـــ إنت بتقول...

زيدان:

ـــ أنا ما قلتش حاجة. أنا قلت اللي كان في الجنينة.

وسكت سعيد. ثم قال ببطء:

سعيد:

ـــ منى جت من هناك.

زيدان:

ـــ أنا ما قلتش منى.

وأطفأ زيدان الشمعة بأطراف أصابعه، وغرقت الغرفة في الظلام.

ونام سعيد على الأرض، ورأسه على ذراعه. ونام زيدان بعده بدقائق، وعيناه، مفتوحتان في العتمة.

وجاء الصباح من بعيد.

صوت كلاكس عربية، طويل، صاخب، يمزق الجدران.

وانفتحت عيون كثيرة في اللحظة نفسها: عيون سعيد في غرفة البابا، وعيون زيدان بجانبه، وعيون فاتن في عنبر الأولاد، وعيون منى في عنبر البنات، وعيون الأطفال الذين ناموا بين الأذرع.

وقبل أن تفهم أي عين ما الذي يحدث، جاء الصوت من الباب الحديدي، من زهرة:

ـــ الأكل جه!

الفصل التاسع
بابا زيدان

لم تكن شاحنة واحدة.

كأنت ثلاث شاحنات نقل كبيرة، تتبعها رابعة أصغر، وخامسة ما زالت بعيدة تسعل في آخر الطريق. تقف أمام الباب الحديدي واحدة بعد أخرى، وتفتح مؤخراتها، فيظهر في الصناديق ما لم يره أحد في الدار منذ سنين:

أكياس أرز في أبراج، وزيت في براميل، وسكر، وعدس، ولحوم مجمدة في صناديق مثلجة، وفاكهة في أقفاص، وبسكويت في كراتين عليها صورة دب يضحك.

وفي الجنينة صرخ الأطفال.

صرخة واحدة طويلة، كأن الدار كلها كأنت تحبس نَفَساً منذ ولدت.

أنس:

ـــ بسكويت!

مظبوط:

ـــ ده كله بتاعنا؟

سالم:

ـــ ده احنا هنعوم في البسكويت.

وهللوا. جروا حول العربات، وتسلقوا الصناديق، وعانق بعضهم بعضاً، وأمسك أحدهم كيس سكر وأخذ يرقص به.

ووقف زيدان عند الباب الحديدي، ويداه خلف ظهره، وفكّه ينفتح قليلاً ثم ينغلق.

كان هو نفسه لم يتخيل شيئاً كهذا. لكن أمامه رجلين من رجال شيخون، في جلابيب بيضاء ناصعة وساعات ذهبية، ينظران إليه وينتظران.

زيدان (بصوت قوي، يخرج من صدره):

ـــ الحمد لله. اللحمة في المخزن التاني. والسكر في الأول. الأولاد، شوفوا شغلكم!

تحرك الأولاد كأنهم جيش.

الرجل الأول:

ـــ ما شاء الله يا باشا. إدارة.

زيدان (يبتسم):

ـــ ده شغلنا.

وجاءت منى من الدار، مسرعة، بخطى حادة، وتوقفت عند الباب.

منى:

ـــ مين دول؟

زيدان:

ـــ ضيوف.

منى:

ـــ ضيوف مين؟ وإيه العربيات دي؟ وإنت تعرفهم منين؟

زيدان:

ـــ هقولك بعدين.

منى:

ـــ أنا عايزة أفهم دلوقتي.

زيدان (يميل عليها بابتسامة رسمية):

ـــ يا ماما منى، الأكل جه. وده المهم، روحي اعملي شاي خلينا نضايف الناس.

منى:

ـــ أنا؟

زيدان:

ـــ إنتي أحسن واحدة بتعمل شاي.

وتركها وسط الجنينة، بفكّ مشدود.

وبعد قليل أمر زيدان:

ـــ يا فاتن، نظّمي إخواتك الصغيرين يساعدوا السواقين. الأكياس الخفيفة للصغار، والتقيلة للكبار. المطبخ والمخزن. وبسرعة.

فاتن:

ـــ حاضر.

زيدان:

ـــ ومنى. قهوة كمان لضيوفنا في غرفة البابا. تلات فناجين. والسكر على جنب.

منى (من بين أسنانها):

ـــ هو فيه قهوة أصلاً؟

زيدان:

ـــ هتلاقي في اللي جه دلوقتي قهوة.

وكان الرجلان يتحدثان معه بأدب بالغ. يميلان عند الكلام، ويضحكان عند جملته، ويمدّان الأيدي ليسلّما على فاتن أيضاً، فتسحب يدها وتبتعد.

الرجل الثاني (لفاتن):

ـــ ما شاء الله. الأخت الكبيرة. ربنا يحفظك.

فاتن:

ـــ شكراً.

الرجل الثاني (لزيدان):

ـــ بابا زيدان فعلاً بيعرف يختار.

وارتفعت رأس منى، ولم تقل شيئاً. ومشت إلى المطبخ بخطى من يحمل في يده حجراً.

وفي طرف الجنينة، على بعد، كان سعيد واقفاً يشاهد ما يحدث، يداه في جيبيه.

زيدان (بصوت عالٍ، ودون أن يلتفت):

ـــ سعيد! تعالى ساعد إخواتك الصغيرين! إنت واقف تتفرج ليه؟

تحرك سعيد ببطء. ثم أمسك كيس أرز بطرف يده وجرّه على الأرض، متأففاً.

ودخل زيدان الدار، ومعه الرجلان، والكل مشغول في عمله.

عدا زهرة، التي كأنت جالسة على السلم، وفي يدها لعبة قماشية، تراقب كل شيء بعينين كبيرتين، دون أن تتحرك.

وقبل أن يدخل غرفة البابا، التفت زيدان إلى مراهق نحيل واقف في الممر.

زيدان:

ـــ عاصم.

عاصم:

ـــ أمرك يا بابا.

زيدان:

ـــ تقف على باب الأوضة. ومحدش يدخل علينا مهما حصل.

عاصم:

ـــ تعليماتك أوامر.

وأغلق الباب.

ومرّت ساعة.

ما حدث في الغرفة لم يعرفه أحد. سمع عاصم ضحكات، وصوتاً يرتفع ثم ينخفض، وحوالي ثلاث مرات صوت ورق يُطوى.

ورأى من تحت الباب ظل أقدام تتحرك، ثم تتحرك، ثم تتوقف.

وحين انفتح الباب، خرج الرجلان أولاً، يبتسمان ابتسامة من أنجز شيئاً. وزيدان وراءهما، يمشي إلى جانبهما، ويضع يده على كتف أحدهما، كأنه يوصل أخاً.

وانطلقت العربات، واحدة بعد أخرى، وفي آخرها سحابة من الغبار.

وبعد ذلك رأى الأطفال زيدان بعين أخرى.

كان قد أنقذهم.

ورأت منى ذلك. وفي المطبخ، وفي الممرات، وفي العنبر، كأنت تسمع الجملة نفسها، بنبرات مختلفة:

طفل:

ـــ بابا زيدان قال إن اللحمة ها نطبخ النهاردة.

منى:

ـــ مين؟

الطفل:

ـــ بابا زيدان.

منى:

ـــ لأ.

الطفل:

ـــ لأ إيه؟

منى:

ـــ زيدان مش بابا.

الطفل:

ـــ هو اللي جاب الأكل!

منى:

ـــ اللي جاب الأكل مش بابا. اللي جاب الأكل جاب أكل. وبس.

وجلست على الأرض في عنبر البنات، وقالت للصغيرات، بصوت منخفض لكن حاد:

منى:

ـــ اسمعوا. اللي يقول لكم "بابا زيدان"، تقولوا له لأ. زيدان مش بابا. وعمره ما هيبقى بابا.

بنت:

ـــ ليه؟

منى:

ـــ عشان البابا ما بيجيبش أكل ويقول: ده بتاعي.

ولم تر منى أن عاصم واقف عند الباب، ووجهه إلى الحائط، يستمع.

وبعد دقائق كان قد ركض إلى الجنينة، وهمس في أذن زيدان بكل جملة، كلمة كلمة.

زيدان (مبتسماً دون أن ينظر إليه):

ـــ كمّل.

عاصم:

ـــ قالت إنك عمرك ما هتبقى بابا.

زيدان:

وابتسم زيدان، وبدا أنه يفكر في شيء آخر.

وفي العصر، وقف زيدان عند عتبة الدار ينظر إلى الجنينة.

كأنت الأرض مليئة بالأطفال يلعبون، وكان سعيد نائماً مكان العربية القديمة وفي المطبخ، كأنت منى وفاتن تطبخان، يتصاعد منه دخان ورائحة لحم.

وكان زيدان يتنفس.

وفجأة ركض ثلاثة أطفال من الدار: أنس ومظبوط وزهرة، يسبقون بعضهم، يتزاحمون على المدخل.

أنس:

ـــ أنا الأول!

مظبوط:

ـــ أنا اللي شفت!

زهرة:

ـــ أنا اللي سمعت!

الثلاثة (معاً، لاهثين):

ـــ التليفون بيرن!

وتحرك زيدان.

لم يركض. مشى بخطى الواثق، وهو يعدّل ياقة جلبابه. ودخل غرفة البابا، وجلس إلى المكتب، ورفع السماعة.

زيدان:

ـــ ألو؟ شيخون! إزيك! أنا مش عارف أشكرك إزاي. إيه كل اللي بعتّه ده؟ أنا كنت بحلم بربعه.

شيخون (من بعيد، بصوت يضحك):

ـــ أنا قاصد يا زيدان. ومش باعت اللي إنتوا محتاجينه. أنا باعت اللي إنت محتاجه بس.

زيدان:

ـــ وأنا يعني هاكل كل ده لوحدي؟

شيخون:

ـــ يا ابني، خليك ذكي شوية. إنت مش محتاجه عشان تأكله. إنت محتاجه عشان تأكله لأخواتك. وتركب فوق العصابة اللي عندك.

زيدان (بثقة):

ـــ تقصد طبعاً بكر ومنى وفاتن ونوران وسعيد.

شيخون:

ـــ أيوه طبعا. وصحيح كنت لسه هسألك: رجالتي وهما عندك ما شافوش بكر.

زيدان:

ـــ البقاء لله.

شيخون:

ـــ إزاي يا ابني؟ مش قلت إن العدوى اللي موتت العيال ما وصلتش البدروم؟

زيدان:

ـــ لأ. ما ماتش من المرض ده. تقريباً اتخانق مع حد، زقّه، وقع على حجر. دماغه اتفشفشت. مات.

شيخون:

ـــ تقريباً!!!

وضحك شيخون ضحكة عالية، طويلة، وكأنه يسمع نكتة سمعها في صغره.

شيخون:

ـــ إنت طلعت شرير أكتر من ما كنت متخيل خالص.

زيدان:

ـــ وشوفت اللي حصل كمان. في بنت من اللي كانوا في البدروم برضه تقريباً اتسممت وماتت. يلا مهي بترمرم. وتلاقيها كلت حاجة بايظه قبل ما أكلك يجي.

شيخون:

ـــ لأ. كفاية إبهار بقى. كده كتير عليا.

وضحك.

شيخون:

ـــ إنت مجرم والله ها ها ها.

ثم عاد صوته أهدأ، يتجسس بين الكلمات:

شيخون:

ـــ طب والباقي، الأيتام اللي بينافسوك، كلوا ولا هيكلوا من الأكل البايظ

بتاع البنت الجميلة اللي ماتت دي؟

وتجمّد زيدان.

زيدان:

ـــ إيه ده؟ إنت تعرف نوران؟

شيخون:

ـــ سمعت عنها. بنت البدروم. وعن اللي بينكم. ولا إنت فاكر إني ما أعرفش؟

ولم يرد زيدان.

وفي رأسه تردد سؤال واحد كالطبل: كيف يعرف؟

أكيد نوران اتكلمت مع حد غير منى. وهو اللي وصل الحكاية بعيداً.

وقال لنفسه: لازم أعرف.

وفتح فمه بصوت مسموع، كمن يطوي ما سمع في ثنايا ابتسامة:

زيدان:

ـــ لا. محدش أكل معاها الحمد لله. بس هنحقق النهاردة في قتل بكر.

وأنا شاكك في منى. ولو طلعت هي، هترجع البدروم تاني.

شيخون:

ـــ لأ. ده إنت كده مش محتاج من حد. وهتعرف تحكم وتسيطر لوحدك.

زيدان:

ـــ ناقصني الفلوس بس.

شيخون:

ـــ والفلوس موجودة.

وشوف: أنا كلمت كل الناس ومهّدت كل حاجة ليك. فاكر أرقام التليفونات اللي أديتهالك لما جيت مع عبدون؟ خلّص خناقة منى، والدنيا تستقر، وكلمهم كلهم.

وسكت.

شيخون:

ـــ بس اقفل معايا وكلّم سعداوي الأول دلوقتي. هو عايز يباركلك.

وقفل زيدان الخط. ورفع السماعة من جديد، وأدار رقماً آخر، بسرعة من ينشد الشيء الجميل مرتين.

سعداوي (من الطرف الآخر):

ـــ زيدان! مبروك يا ابني!

زيدان:

ـــ الله يبارك فيك يا سعداوي بيه.

سعداوي:

ـــ احكيلي. بسرعة.

زيدان:

ـــ الدار استقرت بعد ما إبراهيم هرب. حصلت وفيات. العيانين من العدوى. وبكر... وقع. وفي بنت من البنات... تعبت وراحت.

سعداوي (بصوت هادئ يخفي ابتسامة):

ـــ براحة براحة خلاص مش مهم دلوقتي ربنا يرحمهم. وإنت ناوي على ايه؟

زيدان:

ـــ أنا قعدت مع سعيد إمبارح. فهّمته إن لازم نعرف مين اللي عمل كده في بكر. وإن لو ما عرفناش، بنعرّض الكل للخطر.

سعداوي:

ـــ وسعيد؟

زيدان:

ـــ بدأ يفكر.

سعداوي:

ـــ وإنت طبعاً عايز تثبت إن منى هي اللي قتلت بكر. وكده تبقى البابا رسمي.

زيدان:

ـــ ما قلتش كده.

سعداوي:

ـــ ولا لازم تقول.

وضحك ضحكة صغيرة.

سعداوي:

ـــ ده حلو. بس بلاش إنت اللي تقرر وتحكم. استدرج سعيد. هو اللي يحكم. وإنت تنفّذ.

زيدان:

ـــ أمرك.

سعداوي:

ـــ وفي حاجة تانية. دور الأيتام اللي ناحية الغرب لازم ما يعرفوش إن فيه قتل. حضّر كلام تقوله لهم.

زيدان:

ـــ حاضر.

ووضع زيدان السماعة، ووقف منشياً وخرج.

وصل الي جنينة صعد على المورجيحة الخشبية الطويلة، في وسط الجنينة، كما صعد عليها مرة من قبل، ووقف ورفع ذراعيه.

زيدان:

ـــ كله يجمع هنا.

جاءوا. جاء الأطفال، وجاءت فاتن بمريلة الطبخ، ومنى بمغرفة في يدها، وسعيد يفرك عينيه.

زيدان:

ـــ اسمعوني كلكم. حق بكر لازم يرجع.

وساد صمت.

زيدان:

ـــ أنا وسعيد اتفقنا على كده.

وكلكم شفتوا بعنيكم: منى هي الوحيدة اللي كأنت في الجنينة الخلفية. وهي اللي قتلته. عشان هي اللي تحكم الدار.

وارتجفت المغرفة في يد منى.

منى (بصوت يصرخ فيه كل ما فيها):

ـــ ده كلب! ده هو اللي قتله! وهو اللي قتل نوران!

وما إن نطقت أسم نوران حتى انفجر الأطفال.

أولئك الصغار الذين أحبوها، الذين ناموا بين ذراعيها صرخوا. أنهار بعضهم على الأرض.

أنس:

ـــ نوران!

فاتن (تصيح، ترد على الصراخ):

ـــ نوران ما اتقتلتش! الأكل كان صلاحيته قربت تنتهي. هو اللي موتها!

سعيد:

ـــ واشمعنى هي بس اللي ماتت؟

وسكت الجميع.

وارتفعت عيون كثيرة نحو زيدان، الواقف فوق المورجيحة.

زيدان (بعد لحظة، بصوت هادئ):

ـــ اسألوها.

ثم التفت إلى سعيد، وأشار إليه برأسه:

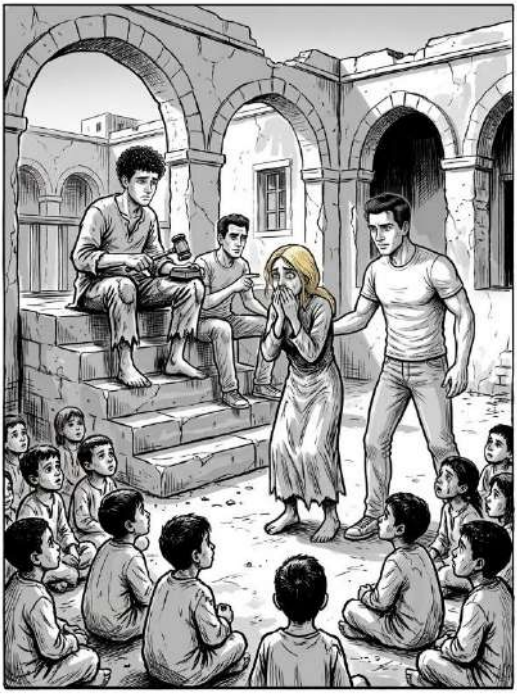
زيدان:

ـــ إنت اللي هتحقق يا سعيد. وتتأكد من كل كلمه انا قولتها أو قالتها مني وحمك هامشي علي الكل.

وجلس سعيد على السلم، حيث جلس البابا مرة من قبل، والأطفال أمامه على الأرض، ومنى واقفة في الوسط، وزيدان إلى جانبه قليلاً، ويداه مضمومتان.

سعيد (بصوت متردد، يبحث عن الكلمات):

— هو... المحكمة... أنا مش فاهم أنا أعمل إيه بالظبط.



منى:

— ولا أنا.

سعيد:

ـــ أيوه. المحكمة تبدأ. مين عنده شهادة؟

ورفعت زهرة يدها.

سعيد:

ـــ زهرة.

زهرة:

ـــ أنا شفت منى عند مدخل الجنينة الخلفية.

سعيد:

ـــ كأنت داخلة ولا خارجة؟

زهرة:

ـــ مش عارفة.

سعيد:

ـــ تمام.

زيدان (من الجانب):

ـــ داخلة ولا خارجة، أهم حاجة إنها كأنت هناك.

منى:

ـــ وإنت كنت فين؟

زيدان:

ـــ أنا كنت بلعب.

منى:

ـــ بتلعب إيه؟

زيدان:

ـــ كورة وكل أخواتك كانوا بيلعبوا معايا.

منى:

ـــ أنت اعترفت ليا بقتل الاتنين وانا مغمي عليا.

سعيد:

ـــ لحظة. لحظة. المحكمة هي اللي بتسأل.

سعيد(لمني):

ـــ يعني الدليل اللي معاكي جالك وانتي نايمة مغمي عليكي.

وضحك بعض الأطفال، ثم سكتوا.

مظبوط (يرفع يده):

ـــ أنا عدّيت.

سعيد:

ـــ عدّيت إيه؟

مظبوط:

ـــ عدّيتهم كلهم قبل ما فاتن تصرخ. وكان ناقص بكر. وناقص منى.

منى:

ـــ أنا كنت جوة العنبر بجيب حاجه مكنتش في الجنينة.

مظبوط:

ـــ يعني ما كنتيش معانا.

وسكت الجميع.

منى (تلتفت إلى سعيد):

وتقدّم زيدان خطوة، وبصوت متواضع، وكأنه يعتذر عن شيء:

زيدان:

ـــ وأنا سؤال بخصوص الأكل.

سعيد:

ـــ اتفضل.

زيدان:

ـــ مين اللي عمل الأكل ده؟

منى:

ـــ أنا وفاتن.

زيدان:

ـــ يعني منى. لو نوران ماتت مقتولة بسبب الأكل، يبقى برضه منى اللي قتلتها.

منى:

ـــ إنت مجنون! أنا وفاتن عملناه سوا!

فاتن:

ـــ أنا كنت معاها.

زيدان:

ـــ وإنتي ما بتقتليش يا فاتن.

وسكت. ونظر إليها نظرة من لا يريد أن يجرحها.

منى (بصوت يحترق):

ـــ إنت بتقلب الدنيا. بكر مات وأنا حزينة عليه. بكر كان بيقول إني غبية وأنا كنت بقوله إنه أغبى. بس ما كنتش هقتله.

سعيد (بصوت بالكاد يُسمع):

ـــ أنا مش عارف بس مني تنزل البدروم.

وتجمد الدار.

زيدان (فوراً، بنبرة المنفّذ الأمين):

ـــ ننفذ. عاصم.

عاصم:

ـــ أمرك.

منى:

ـــ سعيد!

ولم يلتفت إليها.

ثم تقدم سالم، وياسين، وفتاتان صغيرتان، ورفعوا أصواتهم بلا اتفاق مسبق:

سالم:

ـــ ده ظلم!

ياسين:

ـــ منى ما قتلتش حد!

زيدان (لعاصم):

ـــ وهما كمان علي البدروم.

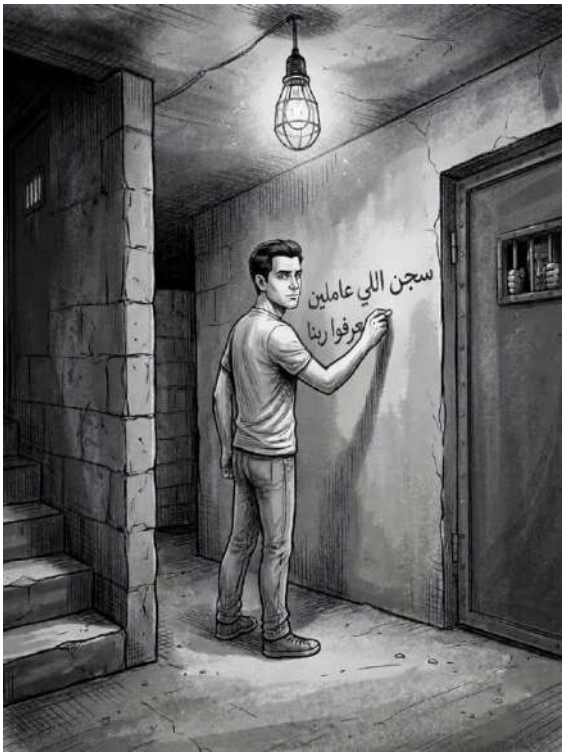
ومضت لحظة. ثم نزلوا.

منى ومعها فتاتان في سجن النساء

وسالم وياسين في سجن الرجال.

وعبد الرحمن كما ه في الزنزانة الجديدة بين السلم والحائط،

نزل زيدان ونظر للزنازين الثلاث وكتب بالطباشير على الباب الصغير الجديد بخط أنيق ثلاث كلمات:



«سجن اللي عاملين يعرفوا ربنا».

ثم تراجع، وتأمل الخط، وابتسم.

وفي المساء رفع زيدان السماعة من جديد، وأدار أرقاماً من ذاكرته كانوا أصحاب الدار اللي الباب ف ي الباب.

صوت (رسمي، ناعم):

ـــ اهلا يا زيدان اخبارك ايه واخبار الدار.

زيدان:

ـــ كله بقي زي الفل الحمد لله.

الصوت:

ـــ مبروك على الاستقرار حققته.

زيدان:

ـــ بفضل حضراتكم.

الصوت:

ـــ ونتمنى لك دوام التوفيق. ومعلوماتنا أنك بتتعامل بحكمة.

زيدان:

ـــ بحاول.

ثم أدار رقماً آخر كان لاحدي دور أيام اليمة الغربية.

صوت امرأة (مهذب، بإيقاع حريري):

ـــ أهلا.

زيدان:

ـــ انا زيدان من دار الأمل وبتصل عشان ابارك بمناسبة العيد الوطني.

المرأة:

ـــ ههه بس العيد بتاعنا مش دلوقتي عموما طمنا علي الدار عندك

زيدان:

ـــ كله تمام الحمد لله وقضينا علي العدو والولاد مبسوطة وكله مستقر.

المرأة:

ـــ عدوى!!!

زيدان:

ـــ ده مرض خطير أنتشر عندنا وايتام كتير ماتوا بس الحمد لله انتهت.

المرأة:

ـــ أنت متأكد أنها انتهت؟

زيدان:

ـــ الحمد لله.

المرأة:

ـــ طيب هبعتلكم معونة طبية وأدوية. وكمان لجنة طبية تكشف على الأطفال، وتتأكد من أن العدوى انتهت تماماً.

زيدان:

ـــ كرم ما بعده كرم والله.

المرأة:

ـــ ده واجبنا. الأطفال أمانة.

ووضع السماعة، وجلس على الكرسي، ونظر إلى سقف الغرفة المتشقق، ثم ضحك ضحكة صغيرة، كمن يرى جمال العالم لأول مرة.

واستقر الأمر أياماً.

أكل الأطفال، ولعبوا، ونموا. وبقي البدروم يحوي ما فيه وبقي زيدان في غرفة البابا، وبقي سعيد في عالمه الخاص، وبقيت فاتن في المطبخ.

وبعد أسبوعين جاءت اللجنة.

عربة بيضاء نظيفة، وفيها ثلاثة رجال وامرأة، في معاطف بيضاء وأقنعة وقفازات. خرجوا من العربة ببطء، ينظرون إلى الدار كما ينظر المرء إلى مكان يخشى أن يلمسه.

رئيسة اللجنة (امرأة في الخمسينات، بعينين متعبتين):

ـــ محتاجين نفحص الأطفال نطمن عليهم. ونفحص والمطبخ. والمخزن. والمياه.

زيدان (بابتسامة صافية):

ـــ أهلاً وسهلاً. الدار دارك.

ودخلوا. وفحصوا.

فحصوا العنابر، والأسرّة، والمخزن، ومطبخ فاتن ومنى. أخذوا عينات من الماء، ووضعوها في أنابيب صغيرة. وفحصوا حرارة الأطفال واحداً بعد آخر، ونظروا في حناجرهم، وسجلوا ملاحظات في دفاتر.

وفي عنبر البنات رئيسة اللجنة كشفت علي فاتن (وبصوت أخفض):

ـــ كم عمرك؟

فاتن:

ـــ سبعتاشر.

وسكتت المرأة. ثم خلعت قفازيها، ببطء.

رئيسة اللجنة:

ـــ ملاحظتيش في الأسبوعين اللي فاتوا؟

فاتن:

ـــ إيه؟

رئيسة اللجنة:

ـــ الغثيان. الدوخة. تأخر...

وتوقفت. وكانت فاتن تنظر إليها كمن يسمع لغة لا يعرفها، ثم كمن تعرّف إليها.

رئيسة اللجنة:

ـــ مبروك.

ثم اجتمعوا في الجنينة، وهمسوا قليلاً.

الطبيب الأكبر:

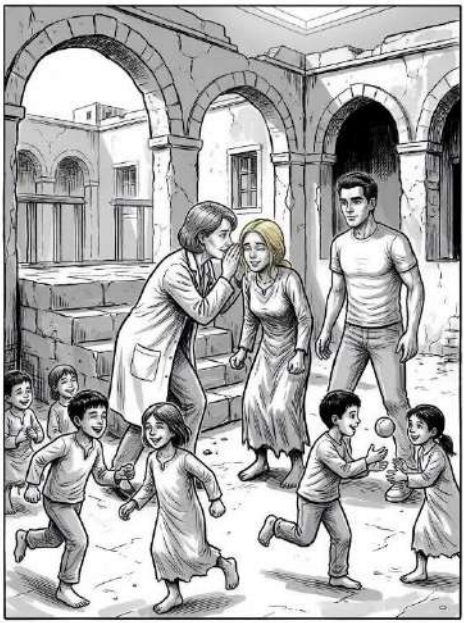
ـــ الحمد لله كل الأطفال بخير.

زيدان:

ـــ الحمد لله.

رئيسة اللجنة:

ـــ لكن عندكم بنوته اسمها فاتن حامل.



فاتن على السلم وأنفاسها محبوسة ولم تقل فاتن شيئاً.

الصغار لم يفهموا شيء لكن زيدان وقف صامتا من الصدمة

سلم علي اللجنة ورئيسها وهو يقول:

ابن بابا إبراهيم ابن بابا إبراهيم.

الفصل العاشر
نـــوح

جلست فاتن في غرفة البابا، ويداها في حجرها، وكتفاها مرفوعان. ووقف زيدان أمامها. وجلس سعيد على حافة المكتب يضرب بسبابته على ركبته.

زيدان:

ـــ حامل؟

فاتن:

ـــ أيوه.

زيدان:

ـــ من مين؟

وسكت. ثم فهم.

زيدان:

— ...من إبراهيم.

ولم يرد أحد.

زيدان:

— يعني إحنا مصدّقنا خلصنا من إبراهيم، هيسيبلنا عيل من ريحته؟

سعيد:

— بس ده ابن فاتن.

زيدان:

— ده ابن إبراهيم.

وأنتبه إلى فاتن. كأنت لم تتحرك.

زيدان (بصوت أخف):

— طب... نشيله.

سعيد:

ـــ نشيله أزاي يعني؟

زيدان:

ـــ يعني الحمل ميبقاش موجود.

سعيد:

ـــ وده حرام ولا حلال؟

زيدان:

ـــ إنت بتسألني أنا؟ وأنا إش عرفني!

فاتن (بصوت مسطّح):

ـــ أنا خايفة مش عايزة أحس بوجع.

وسكتوا.

زيدان:

ـــ طب إنت تعرف تعمل كده؟

سعيد:

ـــ أنا؟ أنا ما بعرفش أعمل حتى شاي.

زيدان:

ـــ ولا أنا.

سعيد:

ـــ والدكتورة مشيت.

زيدان:

ـــ وهي أكيد تعرف. بس لو سألناها هتقول لنا: لأ.

سعيد:

ـــ وهي معاها حق.

زيدان:

ـــ أنا مش بسأل عن حق. أنا بسأل إزاي.

ونظرا إلى بعضهما. ثم نظرا إلى السقف. ثم نظرا إلى الأرض.

سعيد:

ـــ إحنا بنتكلم عن حاجة ما نعرفش نعملها.

زيدان:

ـــ يبقى الحمل يكمل.

وقامت فاتن ببطء، وخرجت، ولم يلتفتا إليها.

ونزلت إلى البدروم.

وفتحت النظارة الصغيرة في باب سجن النساء، وجاء صوت منى قبل أن تتكلم:

منى:

ـــ عارفة.

فاتن:

ـــ إزاي؟

منى:

ـــ الدار كلها عارفة وأي حاجه بتتعرف فوق بتتعرف تحت كمان.

وسكتتا.

فاتن:

ـــ أنا مش عارفة أعمل إيه.

منى:

ـــ اللي هتقرريه هتعيشي بيه.

فاتن:

ـــ وهو؟ هيبقى زيه؟

منى:

ـــ هيبقى زي اللي يربّيه.

وسكتت فاتن. ثم قالت:

فاتن:

ـــ إنتي أكيد هتساعدني مهو هتخرجي من هنا يوم.

منى(بسخرية):

ـــ هاخرج أه.

ومرّت الأيام.

وكان زيدان يجلس في غرفة البابا، والتليفون الأسود أمامه لا يهدأ. رنّ التليفون. دخلت شاحنة. خرجت شاحنة. رنّ التليفون. دخلت شاحنتان. خرجت شاحنة.

كان يوقّع أوراقاً لا يقرؤها، ويسمع أصواتاً لا يسألها من هي، ويقول «أمرك» و«حاضر» و«سيادتك»، ويقول للأطفال «يا ولاد» بصوت أبوي، يتعلمه كل يوم قليلاً.

ولم يكن في الدار من ينافسه.

وفي إحدى المرات ورنّ التليفون.

شيخون:

ـــ زيدان! محصول الشجرة بدأ يطرح.

زيدان:

ـــ ومزهزه وزي الفل

شيخون:

ـــ هبعت ناخد المحصول.

زيدان (بابتسامة سخيفة):

ـــ طب مفيش حاجة علينا ولا إيه؟

شيخون:

ـــ من غير ما تقول يا زوز ربع المحصول هدية لإخواتك. ومرتّب اللي كان بيراعيها كمان هبعتهولك.

زيدان:

ـــ كتير علينا الكرم ده والله.

وسكت لحظة، ثم قال بصوت من أضاءت في رأسه فكرة:

زيدان:

ـــ بقولك إيه يا شيخون. ما نكبّر نشاطنا؟

شيخون:

ـــ إزاي؟

زيدان:

ـــ الأرض عندنا جوه الدار كبيرة. وبره الدار، وحوالين سورها، منزرع شوية شجر كمان. وبالنص.

وسكت شيخون لحظة، ثم قال:

شيخون:

ـــ فكرة حلوة.

وفي المساء كان زيدان جالساً على الأرض في غرفة البابا، وفي يده هاتف ذكي صغير، يضيء وجهه بضوء أزرق.

سعداوي (من السماعة، على مكبّر الصوت):

ـــ زيدان! غطّيني! أنا رايح للدروب!

زيدان (دون أن يرفع عينيه):

ـــ الدروب في الجنينة الخلفية.

سعداوي:

ـــ طب ما تديني الجنينة الخلفية أزرعها. زي ما شيخون خد حتة يزرعها.

وتوقفت يد زيدان عن اللعب.

زيدان:

ـــ دي مدفون فيها إخواتي.

سعداوي:

ـــ مهو الخير اللي هيطلع هيبقى رحمة ونور ليهم. وصدقة جارية.

زيدان:

ـــ ليه؟ إنت هتاخدها ببلاش صدقة يعني؟

سعداوي:

ـــ لأ طبعاً. هاخدها بنفس الأسعار اللي خد بيها شيخون.

وسكت زيدان لحظة.

زيدان:

ـــ طب يلا. اتحرك. الزون هيقفل.

سعداوي:

ـــ تمام. غطّيني.

وعادت يد زيدان إلى اللعب.

وكان الأطفال يعملون.

يحملون الأكياس، ويسقون الأشجار، ويرصّون الصناديق في المخزن، ويحفرون في الأرض الواسعة حول السور. ويلعبون في الاستراحة. ويقولون «بابا زيدان» وهم يعبرون من أمامه، ولم يعد أحد يقول يذكر كلمة لأ.

وكأنت بطن فاتن تكبر يوماً يعد يوم.

وتقف عند باب المطبخ، ترقب الأطفال، وتمرر يدها على بطنها دون أن تنتبه، ثم تسحبها.

وقد استبدل سعيد مقره من مكان عربية البابا القديمة الي بسطة صنعها من بواقي الاخشاب لتكون قصره الهادئ.

فاتن (وهي تضع كوب ماء على الزجاج):

ـــ سعيد.

سعيد (دون أن يفتح عينيه):

ـــ من غير ما أعرف هاتقولي إيه لأ يا فاتون مفيش فايدة.

فاتن:

ـــ رجعت رخم؟

سعيد:

ـــ رجعت سعيد.

وعلى السلالم، جلست زهرة، تعدّ.

زهرة:

ـــ واحد، اتنين، تلاتة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، تمانية.

وتوقفت.

زهرة:

ـــ تسعة.

ونظرت إلى بطن فاتن.

زهرة:

ـــ وبعد تسعة هيبقى فيه واحد زيادة.

وفي ليلة من الليالي رنّ التليفون، وكان على الطرف الآخر صوت لا اسم له. لم يكن شيخون ولا سعداوي.

زيدان (بصوت منخفض):

ـــ أنا قلقان.

الصوت:

ـــ من إيه؟

زيدان:

ـــ من الطفل اللي هتخلفه فاتن.

الصوت:

ـــ طفل يخوف ليه؟

زيدان:

ـــ إنت ما تعرفش ده ابن مين.

فاتن وفاتن يعني الدار. وابنها ده ابن إبراهيم اللي مصدقنا خلصنا منه.

إنت عارف الواد ده كلها كام سنة ويكبر وشنبه يخط في وشه هتلاقي الكل اتلم حواليه.

ولاد إبراهيم اللي مش ناسيين عبد الرحمن اللي في البدروم. وإخواتي اللي رباهم البابا الغايب، واللي عارفين بكر، وبيحبوا سعيد، ومش ناسيين منى.

زيدان:

ـــ إنت عارف يعني إيه يبقى في طفل هجين؟ ابن الاتنين؟

الصوت (بهدوء مطمئن):

ـــ ربّيه إنت كام سنة. وأول ما يبدأ يتكلم، ابعته يتعلم بره في أوروبا مثلا. إحنا هنوفّر له مدرسة. الأطفال بتبات فيها. ويكبر هناك. وتخلص من وجع الدماغ.

زيدان:

ـــ وأمه؟

الصوت:

ـــ ولو أمه اعترضت، قولها: ده لمصلحته. وأهو كل ولاد الدار ولادك.

وبعدين يا سيدي، إنت معاه خمس سنين، تهندلها فيهم وتضحك عليها، وتبعته هي وهي مبسوطة.

وسكت زيدان لحظة، ثم ابتسم.

زيدان:

ـــ عندك حق.

وبعد تسعة أشهر كان زيدان جالساً في غرفة البابا، وقدمه على المكتب، وفي يده السماعة.

زيدان:

ـــ لأ متقلقش. الولاد عندي بقى عندهم خبرة.

وسكت يستمع.

زيدان:

ـــ طيب. هبعتهم لك يعملوا هما الشغل. يلا يا حبيبي. سلام.

ووضع السماعة.

وفي الخارج كان الأطفال يخرجون إلى الأرض، صغيرة، يحملون أدواتهم. أنس ومظبوط وسالم وياسين وبعض أخوتهم. ويخرج من خلفهم عاصم، يعدّهم بإصبعه.

وفي باب المطبخ كأنت فاتن، ببطنها المنتفخة، تحمل صرّة طعام.

فاتن:

ـــ يا ولاد! استنوا! خدوا الفطار قبل ما تخرجوا!

لم يسمع أيٌ من الأيتام صوت فاتن

ومشت نحو الباب الحديدي، بخطى ثقيلة، تنادي عليهم، وهم يبتعدون في الطريق. وحين تجاوزت البوابة بخطوتين، توقفت.

انحنت. أمسكت بطنها بكلتا يديها.

وصرخت.

صرخة واحدة طويلة، حادة.

أنس:

ـــ فاتن!

وركض الأطفال راجعين، وانطلق من الدار من بقي فيها، ومن بين الأعمدة الرخامية، ومن الجنينة، ومن المطبخ.

وخرج زيدان من غرفته.

ولم تكن غرفة البابا.

كان قد بنى في آخر الساحة، فوق الأساس الذي تركه عبدون، غرفة فخمة بجدران عالية ونوافذ زجاجية ومدخل من رخام.

زيدان:

ـــ إيه ده؟ في إيه؟

ورأى فاتن على الأرض، عند البوابة من الخارج، وحولها الأطفال في دائرة.

فاتن (تصرخ):

ـــ بولد يا زيدان! بولد!

وسمع الجميع، من بعيد، من الأقرب إلى الأبعد، صرخة أخرى. أصغر. ثم أخرى.

وصمت جميع الأطفال حتي سمعوا بكاء الرضيع أصغر أيتام دار الأمل.

فاتن جالسة على التراب، ومرفوعة الرأس، وفي حجرها طفلها الصغير، أحمر، ينتفض، ويصرخ في وجه الدنيا.

نظرت إليه طويلاً. ثم ضمّته إلى صدرها.

ورفعت عينيها إلى السماء، وإلى الأطفال، وإلى زيدان.

فاتن:

— جبت نوح يا زيدان.



وتوتة توتة، لسه الحدوتة

٥٠٢

حين يرتدي الاستبداد ثوب الزهد، وتتبدل الوجوه ويبقى الطاحون.. لا يعود الصراع بين قديم يصارع وجديد يطلب الحياة، بل بين منظومة أدمنت إعادة إنتاج نفسها بشعارات أشد لمعاناً وأكثر فراغاً

رحل عبدون ليطرق إبراهيم الأبواب، ويبدأ فصل جديد من الوصاية الناعمة على أيتام لا يملكون من أمرهم سوى انتظار مخلص لا يأتي



عن المؤلف: محمد صبحي، كاتب ومحامٍ حقوقي مصري، عمل لسنوات طويلة في الدفاع عن الحريات العامة والحقوق الأساسية، وشارك في مبادرات وأبحاث متصلة بالعدالة الجنائية. مؤلف للعديد من المؤلفات تنوعت بين الفكر السياسي، والدراسات الحقوقية، والعمل الأدبي الساخر.

من أبرز مؤلفاته:

- كتاب: الشاهد على نظام يحتضر
- رواية: نقابة الحرامية

